سلسلة المعرفة الاجتماعية السياسية

عادل المساتي

سوسيولوجية الدولة بالمغرب

إسهام جاك بيرك

تقديم أحمد بوجداد

عادل المساتي

سوسيولوجية الدولة بالمغرب

إسهام جاك بيرك

تقديم

أحمد بوجداد

- سوسيولوجية الدولة بالمغرب
إسهام جاك بيرك
عادل المساتي
- التصميم والغلاف : طارق جبريل
- الايداع القانوني : 0720/2009
- السحب : مطبعة النجاح الجديدة
- الناشر : سلسلة المعرفة الاجتماعية السياسية
- طبعة : 2010

أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ أحمد بوجداد على قبوله الإشراف على هذا البحث ، وعلى الطريقة التي أشرف بها .

أكثر من ذلك ،لقد كان الأستاذ بوجداد معني بدوره وبشكل كبير بموضوع بيرك ، فلا يبخل في أية لحظة في التأكيد على أهمية جاك بيرك الفكرية ، ومن هنا فهو كان يمنحني حافزا إضافيا على أن أكون أكثر جدية في إنجاز بحث معرب في قيمة الرجل . بهذا ، فالبحث في المستوى الذي خرج به كان ثمرة مجهود ثنائي من كلانا .

● عادل المساتي

إهــداء

بأبي و أمي لإنكما أبي و أمي ، إلى نزهة المكاوي ومصطفى المساتي ،

إلى روح الحاج سي امحمد ،

إلى روح جاك بيرك!

تقديم

وجدت مهمة تقديم هذا العمل للقراء أمرا في غاية الصعوبة والحرج ، لما تترتب عنه من التزامات وتبعات ، إذ لا يكفي إبراز أهمية العمل وقيمته ومكانة صاحبه ، وهي هنا كثيرة جدا ، بل لا بد من موقعته في صيرورة تشكل المعرفة الإجتماعية والسياسية بالمغرب ، ورصد حركاته العامة ، وفترات قوته ، ومحطاته الأساسية .

إن الكتابة حول جاك بيرك ، حياة ومسيرة علمية ، هي بدون شك مغامرة ومجازفة كبيرة ، ولكنها تهون أمام ايجابياتها الكثيرة .

(1)

فلماذا جاك بيرك بالضبط؟

إن القارئ سيعثر في الصفحات الموالية على الجواب الشافي ، ولكن من باب التأكيد المفيد ، يكفي أن نشير باقتضاب إلى أن جاك بيرك هو أولا وقبل كل شيء من كبار أصدقاء ومحبي المغرب والمغاربة ، ومن القلائل الذين كانوا واستمروا يحملون نظرة إيجابية عنا ، رغم كل النكبات والإخفاقات . لقد أهدى للمغرب أحسن دراسة سوسيولوجية «البنيات الإجتماعية للأطلس الكبير» (الأطروحة التي نال بها دكتوراه الدولة سنة 1955 بجامعة باريس) إضافة إلى عشرات الدراسات والأبحاث التي تعرضت بالتحليل لمختلف جوانب المجتمع المغربي : الاجتماعية ، الدينية ، الزراعية ، السياسية ، القانونية ، اللغوية . . .والتي مازالت مع الأسف لحد الآن ،

غير مستغلة بل وأحيانا غير معروفة .

إن عبقرية جاك بيرك الفذة ورصيده العلمي الهائل (164 كتابا ودراسة إضافة إلى عشرات المداخلات والمقابلات ، الموزعة بين التاريخ والسوسيولوجيا والسوسيولوجيا السياسية والتاريخ الإجتماعي والإقتصادي والقانون واللغة . . .) بوأته مكانة علمية مرموقة سمحت له بالولوج مبكراإلى أرقى المؤسسات العلمية بأوروبا (كوليج دو فرانس) حيث سيتربع على كرسي سلفه روبيرمونطان ، أب السوسيولوجيا الكولونيالية بالمغرب ، والذي أصبح بمجيئه يحمل إسم «التاريخ الإجتماعي للإسلام المعاصر» عوض «تاريخ توسع الغرب» .

إن العلامة جاك بيرك شخصية علمية نادرة قلما جد بها التاريخ الثقافي الحديث ، إذ تناغمت حياته الخاصة بحياته المهنية والعلمية فالفت سيمفونية رائعة ، تجسدت في تطابق تحقيب مراحل حياته المهنية بتطور حياته العلمية ، إذ يعتبر أحد رواد السوسيولوجيا الكولونيالية ومن كبار الناقدين والمحررين لها ، ومن بين أهم مؤسسي السوسيولوجيا العربية ومن الداعين إلى تأسيس أنثروبولوجيا جديدة ، دون أن ننسى كونه منظرا لامعا لحركة تصفية الاستعمار فاقت خطورته فرانز فانون .

(2)

إن قراءة النص البيركي أو دراسة متنه تحول دونه عراقيل عديدة ، في مقدمتها أسلوبه ومنهجه الخاص في التحليل والمعالجة ، وكذا

طبيعة الدينامية الداخلية لمضمون مواضيعه في الزمان والمكان ، والتي تلعب فيها ثقافته الموسوعية وواقعيته التاريخانية دورا كبيرا .

فإضافة إلى كونه يجمع بين اختصاصات المؤرخ والسوسيولوجي ، والأنثروبولوجي والسيميولوجي ، فإنه أحيانا يكتب بأسلوب شاعري ، . فهو يتمتع بقدرة كبيرة على الإنتقال من حقل معرفي إلى آخر ، والنهل من مختلف مصادر المعرفة الإنسانية على اختلاف مشاربها ، وتطويعها ، وصبها في قوالب خاصة به ، حتى أصبحت هناك لغة ومنهجا خاصين به وحده .

لقد سبق لأحد أصدقائه المغاربة ، الأستاذ أحمد بناني ، أن كتب عنه ، في هدا الصدد ، سنة 1962 ، قائلا بأنه «لولا أن للأستاذ (جاك بيرك) أسلوبا خاصا به ليس في متناول القارئ العادي . . .لكان لكتبه القيمة شأن وأي شأن عند العامة كما لها شأن كبير عند الخاصة»

فغموض تحليلاته وتعقدها ، يفسرها بعض الباحثين ، بكونه «يتمتع بإحساس حاد يبهر العقول ، و بقدرته على إدراك أخف نبضات قلوب أهل المغرب العربي» (م .ب .ع . 2004 ص 20) ، و إلى «إدماجه الإحساس في الميدان العلمي» .

إن أسلوبه مفتوح جدا ، فهو يفضل أحيانا التلميح والإشارة وأحيانا أخرى يترك المعاني معلقة . ولذا لايفتأ ينبه القارئ بأن على العبارة أن تجهد نفسها بأقصى ما تستطيع لتعكس الواقع ، لأن الواقع ليس بمستو حتى تكون العبارة مستوية .

فعلى خلاف كثير من المستعربين ، يتميز بيرك بإصراره على التعامل مع الواقع الحي ، وليس مع النصوص الميتة (طرابشي ج) فهو يرفض التعليل الميكانيكي ، والتحليل التبسيطي ، واختزال عوامل التطور في عناصر وحيدة .

فقد كتب بنفسه في مقدمة أطروحته «بأنه يتخلى عن منهج جمع المعلومات المشكوك فيها ، والصحف الإستثنائية ،ليدع الأحداث تأتي إليه وحدها» .

ربما يعتقد القارئ بأننا نبالغ كثيرا في تقديمنا لشخصية جاك بيرك ، إلا أن العكس هو الصحيح . أي أننا لم نوفه إلا النزر اليسير .

(3)

إن استحضار بيرك ليس غاية في حد ذاته بقدر ما هي غاية علمية صرفة .

إن أبحاثه تفتح ، دون شك ، أفاقا جديدة للبحث العلمي السياسي بالمغرب ، بسبب غناها وتنوعها وابتداعها زوايا نظر جديدة في مقاربة المجتمع السياسي بالمغرب : من خلال رصده الجذور الثقافية والإجتماعية والنفسية للسلطة والدولة في المغرب منذ مطلع القرن السادس عشر ، مشرحا طبيعة بنيتها وخصائصها وقوانين تطورها .

فإذا كان جاك بيرك اليوم هو شبه غائب في الكتابات العلمية بالمغرب ، إما كبحوث حرة أو دراسات أكاديمية ، فإن ذلك لا يعني أنه كان غائبا تماما . فالمثقفون و الباحثون المغاربة أولوا أهمية كبيرة لأعماله

ولشخصيته ، وذلك في مناسبات عديدة ارتبطت في الغالب بتطور المشهد الثقافي والسياسي بالمغرب .

إذ يكفي التذكير بأن سنوات السبعينيات وبداية الثمانينيات شكلت مرحلة الأوج في الإهتمام به ، فباستثناء بعض الشهادات أو الكتابات العامة هنا وهناك ، نجد مجموعة من المساهمات ، في شكل قراءات مركزة لبعض أعمال جاك بيرك ، أبرزها دفاعا عن العالم القروي ، قام بها محمد بوغالي لكتابه « le second Orient » (لاماليف 1972) ، و«الإستشراق الفاقد الإتجاه» لعبد الكبير الخطيبي لكتاب «اللغات العربية في الحاضر» (الأزمنة الحديثة 1976) ؛ أو في شكل مقارنة ، الأولى للأستاذ محمد وقيدي ، يقارن فيها بين ارنست رينان وجاك بيرك (دراسات عربية 1982) ، والثانية للأستاذ ساعف ، يرصد فيها مؤلفي ليفي بروفنسال وجاك بيرك حول الشرفاء والعلماء (الأساس 1985) ، وقد تلتها مساهمات أخرى لكل من عبد اللطيف أكنوش (لاماليف 85) ومحمد موقيت (مجلة كلية الحقوق 88) وبوعزة بنعاشر .

لكن بصدور أطروحة الأستاذ العروي «الجذور الإجتماعية والثقافية للوطنية بالمغرب سنة 1977 ، سنعثر على مناقشة دقيقة لأفكار جاك بيرك عندما يتعرض المؤلف للنظريات والأطروحات السائدة حول القبيلة في شمال إفريقيا . وسوف نتعرف أكثر على أسلوب ومنهج جاك بيرك ومشروعه العلمي وبخاصة إسهامه في إرساء أسس السوسيولوجيا

السياسية بالمغرب في كتاب الأستاذ ساعف عبد الله« Politique et savoir au Maroc ») من خلال مقارنته بقطبي السوسيولوجيا الكولونيالية بالمغرب : ميشو بيلر وروبر مونتان .

أما الراحل بول باسكون ، فقد سار أكثر من غيره على خطى ونهج جاك بيرك ، تكفي الإشارة أنه أكمل ما بدأه بيرك في أطروحته ، حيث نشر بطلب من المؤلف دراسة ملحقة في الطبعة الثانية لأطروحته وهي : «سكساوة منذ الإستقلال» ، كما أن أطروحة باسكون «حوز مراكش» ليس ببعيدة عن «البنيات الإجتماعية للأطلس الكبير» لا في الموضوع ولا في المسافة .

ولم يكسر هذا السكون إلا كتاب الأستاذ محمد بوغالي الذي يرصد فيه مجمل فكر بيرك حول العالم العربي ، وهو تحت عنوان «Jaque Berque ou la saveur de monde arabe» سنة 1995 .

أما على مستوى البحوث الجامعية ، فلم نعثر ، حسب علمنا ، إلا على العمل المتميز للأستاذ عبد الرحيم عدناوي «مساهمة في دراسة السوسيولوجية السياسية بالمغرب : إسهام جاك بيرك» (1987) الذي يرجع له الفضل في جمع وترتيب وتصنيف وتحقيب مجمل أعمال جاك بيرك ، ورسالة الباحث عادل الموساتي «الدولة المغربية في الفكر السياسي لجاك بيرك» (2007) الذي وجد في البحث السالف الذكر ، قاعدة ارتكاز أساسية ، وفي شغفه الكبير بعبقرية جاك بيرك و قراءاته الطويلة له حافزا قويا لإنجاز بحث في هذا المستوى ،لدى استحق ذلك

الذيوع والانتشار في أوساط القراء .

فاختيار هذا العمل في أول إصدار لهذه السلسلة ليس صدفة ، بل جاء اقتناعا منا ، داخل مجموعة البحث ، بأنه سيشكل لا محالة إضافة متميزة داخل المشهد الثقافي ببلادنا ، ولبنة أخرى تنعش وتعزز البحث العلمي السياسي بالمغرب وتنتشله من بؤسه و تفتح له آفاقا جديدة .

● أحمد بوجداد
منسق مجموعة الدراسات
والأبحاث في العلوم الإجتماعية والسياسية
كلية العلوم القانونية والإقتصادية والإجتماعية
أكدال- الرباط- يناير 2010

مقدمة

لماذا الدولة عند جاك بيرك ؟ إن الفرضية التي ينطلق منها هذا البحث تقوم على أن اختيار موضوع الدولة في المغرب في كتابات من حجم كتابات بيرك من شأنه أن يعمق- وقد عمق فعلا- معرفتنا العلمية بالموضوع . وما يؤسس لهذا القول هو وجود مجموعة من الأبحاث الرصينة أنجزها باحثون أجانب حول المغرب تستحق الالتفات بل وتستلزم الرجوع إليها بقصد إغناء البحث العلمي بالمغرب والدفع بعجلته إلى الأمام . ولاشك أن أعمال جاك بيرك تأتي في مقدمة هذه الأبحاث لغناها وتميزها الكبيرين . وبالإضافة إلى هذا السبب الموضوعي ، يوجد أيضا سببين آخرين هما :

-سبب علمي يكمن في تنمية البحث العلمي في حقل العلوم السياسية بالانفتاح خاصة على ما توفره رؤية التحليل التاريخي والسوسيولوجي والأنتروبولوجي من أبعاد جديدة ؛

- سبب ذاتي يكمن في الرغبة في توفير بحث للقارئ العربي عن إنتاجات جاك بيرك الذي تقل الكتابة حوله بصفة عامة ، وباللغة العربية بصفة خاصة . ومن جهة أخرى ، فإن الاهتمام الشخصي بالموضوع لم يكن مفصولا عن اختيار الأستاذ المشرف الذي شاركني نفس الرغبة بل بإلحاح في إنجاز عمل حول هذا الموضوع وفي هذا المستوى ، بل شاركني في تحرير وإعادة صياغة عدد من الفقرات .

فضمن هذا الإطار حيث ينحو هذا البحث إلى رصد خصوصية

علاقة إنتاج جاك بيرك بتطور الدولة بالمغرب . إن مقاربة بيرك تميل إلى التشبث بالجذور . هكذا نرصد معه نشوء الدولة في المغرب منذ منتصف القرن السادس عشر ملاحظا أن المغرب كان يعكس هنا ذات الحركة التي كانت قائمة بشمال المتوسط . إن بيرك أيضا سلط الضوء بكثافة على مختلف النزعات المتباينة التي كانت ترغب في الوصول إلى السلطة الدولتية أو التي تلتمس منها هذه السلطة تكريس مشروعيتها . هكذا نرى التحليل الرصين لدور كل من المرابط والزاوية والمهدي والعلماء على تنوعهم . . .

بعد الاستعمار أصبحت تلك الدولة في يد الوافد الجديد . إن بيرك في ظل هذا الوضع يشعرنا بضعف الدولة الكولونيالية بالمغرب ، خاصة من الناحية السياسية ، فركز اهتمامه على انبعاث الوطنية وتبلورها إلى حد استرجاع الاستقلال .لكن بيرك ،وهو الذي لا يجامل أحدا ، يرى أن التأثير الاستعماري كان قويا ، إن بشكل مباشر ، كما سنرى في الفقرة الاقتصادية ، أو عبر تدخل غير مباشر كما سنرى في مجال التغيير الاجتماعي . إلا أن التطور العقاري الذي تم في ذات الفترة يصوره لنا بيرك على أنه تم بمعزل عن التدخل الاستعماري ، وإن كان يستوحي من رياح "الأزمنة الحديثة" .غير أن التطور الذي مس المجال أو المورفولوجيا ، ولا سيما علاقات المدينة بمحيطها وبالقرية خاصة هو يظل في نظر بيرك إسهاما استعماريا محضا ، بغض النظر عن حكمنا على نوعية هذا التطور .

بعد مجيء الاستقلال أصبحت الحداثة مغاربية . في هذه الفترة يواصل بيرك تقييمه للدولة مبديا متى يؤشر تدخلها عن فعالية ومتى لا تتلائم مع "الإطار الإيكولوجي" . سيخبرنا بيرك كذلك كيف أن هذه الدولة ستعمل على تكريس بعض مكتسبات النظام الذي سبقها (الاستعمار) في حين أن المتوقع في نظره كان هو تجاوزها . سيظهر هذا مثلا في مسألة التعريب أو مواصلة القانون الفرنسي في اكتساحه للتشريع المغربي .

إن الاهتمام بالدولة في المغرب في كتابات بيرك يجعلنا نكتشف بداية تشكلها وكيف تبلورت فكرتها و ما هو المسار الذي سلكته . إن بيرك يعطى صورة شاملة عن التطور السياسي بالمغرب مصحوبا بتحليل وافي للتطورات الاجتماعية والاقتصادية وذلك منذ بداية الحماية حتى مرحلة متقدمة من الاستقلال مرورا بـ"محاكمة" بيرك للمرحلة الاستعمارية .

وفي مقابل هذه الإضاءة التي يزود بها بيرك القارئ تنتصب الصعوبة التي تطرحها مؤلفاته . فهو يتميز بتنوع كبير لمعارفه وكثافة عبارته وغزارتها .إنه يفترض فيك الإحاطة المسبقة بالتاريخ الحدثي ، وهذا يشكل صعوبة إضافية .إنه يوظف أيضا تخصصات جديدة مثل السيميولوجيا . ففي كتابه" المغارب فيما بين الحربين" Le Maghreb entre deux guerres)) مثلا نجده يتحدث عن «معركة الرموز «أو «صراعات الشيء والرمز» . إن هذا التنوع الكبير يتطلب

التأني الأكبر . فكثير من مكتشفي كتاباته أقروا بمثل هذا ، بل إن بعد بداية قدوم الأنجلوساكسونيين لمنطقة المغارب ، فإن الظاهر هو ملاحظتهم تفرد الرجل بين أقرانه معبرين أحيانا عن اندهاشهم أن تكون أرض المغارب قد حظيت يوما باهتمام مثل هذه العبقرية الفذة . أما المبتدئ ، وخاصة إذا كان طامحا ، فقد يشعر بالعجز أمام فرط قوة إنتاج بيرك ، وهو الذي قد يطمع يوما في التفوق في علم الاجتماع أو العلوم السياسية أو التاريخية .

تنضاف إلى الصعوبات التي لاقيناها ، إن على مستوى اللغة والأسلوب أو ترابط الإنتاجات صعوبة لا بأس بها في التعريب . فحتى إذا استطعت أن تفهم بيرك ، فإنك قد تجعل صعوبة كبيرة في نقل ما يريد تبليغه إلى لغة أخرى . وبخصوص المصطلحات ، فهو أحيانا يقدم لنا مصطلحات عربية أو مغربية أصيلة لا نجد إشكالا في ترجمتها (مثلا العْزيب- الجماعة- الصُّحبة - العُلما . . .) ، إلا أنه أحيانا لا يفعل في أماكن أخرى محتفظا بها كما تقدمها أصالته هو(مثل) . . . Seigneur- Prolétariat- Maître ، بل إن الإشكال قد يطرح مع كلمات بسيطة ، أي ذات حمولة ثقافية أقل أو حتى منعدمة .

أما عن الطريقة المتبعة في مقاربة إنتاج بيرك وتحليلاته عن الدولة في المغرب ، فقد عمدنا إلى الإطلاع على أهم كتبه حول الموضوع أو ذات صلة به مراعين التقسيم الزمني : ما قبل الحماية- حماية

- ما بعد الحماية . كان النهج المتبع هو الالتصاق كلية بفضاء بيرك ولا نخرج عنه أبدا لإقحام أية إضافة مفضلين أن نترك الرجل يتكلم بمفرده لا أن نناقش رؤاه بالنقد الذي قد يتناوله(فهذه مهمة مستحيلة الآن) . ففي مسألة كاختيار العناوين ، كنا نسعى جاهدين للاحتفاظ بعبارته ، وفي غياب هذا عملنا بقدر الإمكان على البحث عن عبارة تجمع مراده و تعكس غايته .

في الارتباط بموضوعنا الدولة ، كنا نقتصر أحيانا على عرض معلومات بيرك حول نشاطها ، وأحيانا أخرى كنا ندقق ضمن هذه المعلومات ما يكشف عن ميله الشخصي (مثل ما حصل في تحليله للمسألة العقارية ، إذ ظهر انحياز بيرك لصيغة الجماعة) .

وفيما يتعلق بالتصميم الإجرائي لتنفيذ المنهج ، فقد تم توزيعه إلى ثلاثة فصول يتناول أولها نشأة الدولة بالمغرب وانتشارها المجالي ، مدنا وقبائل ، بينما خصص الفصل الثاني لرصد فعل الدولة وهي في يد الاستعمار ، ومدى حدود هذا الفعل في الارتباط مع قضية التغيير . أما الفصل الثالث ، فيتناول تقيم بيرك للحصيلة الاستعمارية ولفترة الاستقلال إلى حدود تتجاوز السبعينات . إلا أنه قبل أن يكتشف القارئ هذه الفصول الثلاثة بشكل مباشر ، فقد قدرنا أهمية إقحام محور يقدم لبيرك وأعماله ومدى مكانة المغرب في إنتاجه فضلا عن مكانته هو في الكتابة المغربية . وقد ترددنا بين إدماجه في المقدمة أو في فصل تمهيدي مستقل . وقد فضلنا الاختيار الأخير لما فيه من

الفائدة في هذه المرحلة وفي هذا المستوى من البحث .

بقي أن نشير إلى أنه فيما يتعلق بطريقة الإحالات على مراجع بيرك ، فقد وضعناها جهة اليسار بإتباع نمط التصنيف الفرنسي ، إذ كنا نشير إلى كتبه بعناوينها الأصلية . أما عند إضافة معلومات أو تعاليق قدرنا أهمية إدراجها في الهامش ، فقد أتت معربة . وكانت بداهة لابد أن توضع جهة اليمين .

فصل تمهيدي:
التعريف بالعلامة جاك بيرك
وتقديم أعماله خاصة عن المغرب

1- من هو جاك بيرك؟

يتعرف القارئ أكثر على جاك بيرك المفكر بعد الانتهاء من قراءة رحلته المغربية ، والتي استغرقت ردحا لا بأس به من حياته[1] . ولد جاك بيرك بمدينة وهران في الجزائر . لقد كان والده أوغسطين بيرك (Augustin Berque) يشغل منصبا هاما في هرمية السلطة الفرنسية هناك ، كما أنتج أيضا الكثير من الكتابات السوسيولوجية والانتروبولوجية عن الجزائر بالخصوص . لقد كان أول احتكاك لجاك بيرك بالمغرب عام 1930 في إطار تأديته للخدمة العسكرية . بعدها عين مراقبا مدنيا في منطقة البروج ثم نائبا بلديا في فاس قبل أن يعينه المقيم العام جوان مراقبا مدنيا بمنطقة إيمنتانوت عام 1947 .في عام 1955 حرر جاك بيرك أطروحته قصد نيل الدكتوراه حول موضوع «البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير»(Les structures sociales du Haut – Atlas) .إن هذه الأطروحة خولت له أن ينتخب أستاذا ب» كوليج دوفرانس»حيث سيشغل كرسي «التاريخ الاجتماعي الإسلام المعاصر» وذلك سنة 1956 . إن هذا فتح له آفاقا أوسع فتم تعيينه مندوبا لليونسكو في مصر عام 1960 هذه الفرصة التي منحته أيضا التعرف على المصريين ومصر التي ألف بشأنها بعض أهم مؤلفاته . وقد توفي جاك بيرك عام 1995 عن عمر يناهز 85 سنة تاركا إنتاجا

1 – نشير إلى أننا لم نحصل على بيوغرافيا مفردة لبيرك (؟!) وما سنقدمه هنا فقد تم فقط التقاطه من الكتابات التي استطعنا التوصل إليها بشأنه (انظر لائحة المراجع) . فإذا كانت «الموسوعة الجامعة» (Encyclopaedia Universalis) قد وجدت من يمدها بمادة «ماسينيون» . فإن الظاهر أن بيبلوغرافيا جاك بيرك لم تجد بعد من يقوم بذات الدور الذي قام به Y. Moubarac مع ماسينيون .

غنيا وكثيرا ومتنوعا .

إن هذا الإنتاج يمكن تأطيره زمنيا وفكريا – حسب التقسيم الذي نقتبسه من رسالة عبدالرحيم عدناوي[2] – ضمن ثلاث مراحل :

-**المرحلة الأولى** (1946–1935) : لا تتميز كتابات بيرك ضمن هذه المرحلة عن باقي السوسيولوجيا الكولونيالية ذلك أنها تعاصرت مع فترة مركزه كموظف مخلص لدى سلطات الحماية بالمغرب . لقد كان بيرك يعول على هذه السلطات في تحديث شامل للمغرب ؛

-**المرحلة الثانية** (1955–1947) : توقف بيرك في هذه الفترة عن التفكير في قضية تحديث المغرب ولم يعد يقترح أية إصلاحات بعد أن تم تنقيله إلى منطقة الأطلس الكبير بصفته مراقبا مدنيا . لقد أصبح يكتفي برصد الواقع والعمل على تحليل الجوانب المختلفة للنظام التقليدي وهو في احتكاك مع الحضارة الغربية ؛

- **المرحلة الثالثة** (من سنة 1953 إلى غاية وفاته) : دشن بيرك هذه المرحلة بتحرير مؤلفه الضخم «البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير» (1955) الذي سمح له بالولوج إلى «كوليج دوفرانس» . في هذه الفترة سيقطع بيرك مع توجه السوسيولوجيا الكولونيالية ويعمد إلى نقدها وفحص مختلف أحكام القيمة التي تحفل بها ، وهو بهذا سينحو إلى

2 -Aderrahim Adnaoui، Contribution à l'étude de la sociologie politique du Maroc، L'apport de Jacques Berque، Mémoire pour l'obtention du diplôme d'études supérieures es sciences politiques ، Faculté des sciences jur. ، eco et soc. ، Casablanca، Avril 1987، pp. 7-11.

إنتاج أعمال ذات صبغة تركيبية . ومن جهة أخرى ، فإن جاك بيرك سيطرح نفسه كعالم اجتماع يحلل ظواهر تصفية الاستعمار والعلاقة بين الخصوصية والعالمية . . .

وقد توزعت أعمال جاك بيرك[3] بين علم الاجتماع وعلم الاجتماع السياسي (70 عملا) والتاريخ الاجتماعي(43) والقانون وعلم الاجتماع القانوني(17) والتاريخ (35) لتبلغ في المجموع 165 عمل فكري تشهد على غنى وتنوع إنتاج جاك بيرك .

وبذلك يكون جاك بيرك من العلماء والباحثين الفرنسيين القلائل الذين عمدوا إلى إدخال طرق ورؤى جديدة في دراسة المنطقة المغاربية ، والمنظومة الإسلامية عامة . فقد عمد الرجل وهو المتأثر بمدرسة الحوليات مع مارك بلوك (MarcBloch) ولوسيان لوفيبر (Lucien Le Febvre ، إلى المزاوجة بين فضائل السوسيولوجيا والتحليل التاريخي في دراسة المنطقة العربية والمغاربية ، والمغربية بشكل خاص .

2- المغرب في كتابات بيرك

سبقت الإشارة أن بيرك قضى فترة لا بأس بها من حياته في المغرب . هذه الفترة التي كان فيها بيرك الشاب يكتشف التنوع المغربي . فقد توزعت تنقلاته بالأساس بين الغرب وفاس والأطلس الكبير . لقد كان بيرك ، رغم أنه لازال يافعا ، يتمتع بقوة الملاحظة المدعمة باطلاعه النظري الواسع مما سمح له بإنتاج بعض الكتابات

3 - للمزيد من التفاصيل حول هذه الأعمال وتصنيفها بحسب الموضوع والتحقيب الزمني انظر رسالة عدناوي المشار إليها (من ص 12 إلى 14) .

الأولى التي ليس فقط كانت تبشر بالمستقبل الواعد (كما حصل مع كتاب» دراسات عن التاريخ القروي المغاربي»[4] (1938) الذي قدم له لوسيان لوفيبر رائد مدرسة الحوليات بفرنسا في علم الاجتماع الريفي) ، بل إنه كان أيضا يهيئ الأرضية اللازمة لإنتاج مؤلفه الهائل الذي يجمع بين الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا والسوسيولوجيا والدراسات اللغوية »البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير»(1955)[5] ؛ المؤلف الذي فتح له الطريق رأسا نحو الكوليج دوفرانس .

بعد أن أصبح بيرك أستاذا بهذا الكوليج خلفا لروبيرمونطان الذي كان يحمل كرسيه عنوان «تاريخ توسع الغرب» في حين أن عنوان كرسي بيرك هو «التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر» . لقد

انقلبت الرؤية : الإسلام محل الغرب ، تعميق المعرفة بالشرق عوض تمهيد الطريق للرجل الأبيض- بعد ذلك ، لم يهمل بيرك المغارب ، وبالأخص المغرب .

نعم بالأخص المغرب .فمن جهة أولى ، نجد مؤلفات خاصة بالبلد مثل «اليوسي ، مشاكل الثقافة المغربية في القرن 17» (1958) ، و» لنتجه صوب المغرب» (1977) الذي هو بمثابة لوحة فنية رائعة عن المغرب تتجاوز مرحلة الاستقلال . ومن جهة ثانية ، فإن بعض المؤلفات التي يبدو أنها مخصصة لمجموع المغارب هي ذات

4 - تعمدنا أن نقحم عناوين كتب بيرك في المتن وهي معربة . تنظر لائحة المراجع أو الإحالات الداخلية فيفهم بسهولة أي منها المقصود .

5 - يعتبر D. Rivet أن هذا المؤلف يمكن مقارنته بعمل ليفي ستروس عن الهنود الحمر ، بل إن بيرك قد يكون عمد إلى هذا التناظر بالضبط .

عناوين «خادعة» ، بمعنى أن العنوان يحمل مفردة «المغارب» أو نعت «المغاربي» في حين أن المادة التي اعتمد عليها بيرك تعتمد بشكل شبه حصري على المعطيات المتعلقة بالمغرب .من هذه النماذج : نذكر كتاب»العلماء بالمغارب : مؤسسين ومتمردين» الذي انحصر التقييم فيه على «المثقفين» المغاربة ، ومؤلف «دراسات عن التاريخ القروي المغاربي»الذي أشرنا إليه ؛ فهو يتناول حصريا منطقة الغرب المغربية ومن جهة ثالثة ، فإن بعض مؤلفات بيرك المغاربية ، رغم أنها تحلل بالفعل الوضعية المغاربية بأقطابها الثلاث (المغرب-الجزائر- تونس) ، فإن نصيب المغرب يكون دائما هو الأوفر . على سبيل المثال ، نلحظ هذا الامتياز لصالح المغرب في المؤلفين- التحفة « باطن المغارب» و» المغارب فيما بين الحربين» .

وخارجا عن المجال الفكري ، فإن بيرك هو «صاحب مشروع عصرنة الفلاحة على عهد الحماية (بالمغرب) . ولو أن الحماية نفذته تنفينا صادقا لكان من أعظم حسناتها . إن كان من الممكن أن تكون للحماية حسنات! ولما أخذ المراقبون الفرنسيون ومن لف لفهم من ضباط ومعمرين وغيرهم يدبرون مؤامراتهم ويكيدون للمغرب شر كيد ، انسل الأستاذ بيرك من صفوفهم معبرا بذلك عن تبرئته من أساليبهم الدنيئة ، وعن يقينه بأنهم يحاولون رد المستحيل لأن رد السبيل عن مجراه أهون من رد شعب يستفيق . وسيبقى موقفه النبيل

هذا صفحة ناصعة من ترجمة حياته»[6] .

وبالضبط كما اهتم بيرك بالمغرب ، فقد اعتنى بالمغاربة أيضا . هكذا نراه يطلع على مختلف إنتاجاتهم في الأدب كما في الفنون ، في الفلسفة كما في التاريخ وباقي العلوم الاجتماعية كما يتبلور هذا الاهتمام في مؤلفه «لنتجه صوب المغرب»[7] . إذا أشرنا إلى أن بيرك كان يستغل مشاهداته لمغرب الثلاثينات والأربعينات لأغراض علمية ، فإنه لم يفته أيضا أن يحسن استخدام علاقاته مع المغاربة لذات الأغراض . هذا مكنه من الإطلاع على مختلف الخزانات الوطنية ، العامة والخاصة ، بل كان يصل حتى إلى رفوف الزوايا فيخرج الوثائق المهترئة المصفرة باعثا فيها حياة جديدة[8] .

إلا أنه في مقابل هذا الاهتمام من جانب بيرك بالمغرب والمغاربة ، فإن الظاهر هو أن هؤلاء عملوا على دفن بيرك . هل تجووز بيرك حقا؟ أم

6 - أحمد بناني ، « كاتبان : لوتورنو وبيرك » ، مجلة البينة ، العدد 4 ، غشت 1962 ، ص 20 . وبالإضافة إلى هذا الموقف السياسي ، يخبرنا بول باسكون في الملحق الذي أضافه ، بطلب من بيرك ، إلى النسخة الثانية المزيدة والمنقحة (1978) لكتاب بيرك« البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير» عن عمق الإحسان الاجتماعي من جانب بيرك . فعوض أن يقوم بيرك بإهداء الشموع ، كما هي العادة ، للولية ((Sainte المبجلة بسكساوة « للاعزيزة» ، فقد أهدى لها بيرك ساعة حائطية يضبط الناس أوقات الصلاة على إيقاعها . إن الشموع تذوب ، بينما الساعة الحائطية ستذكرهم على الدوام بذكراه ، وستذكرهم بالأخص أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

7 - سنكتشف اهتمام بيرك بهذا كله في الفصل الثالث .

8 - نذكر على سبيل المثال علاقاته الممتازة مع أحمد بناني ، مدير الثقافة والفنون الجميلة وعبد الرحمان الفاسي وامحمد باحنيني وإبراهيم الكتاني . قلنا أيضا مع الزوايا ، فالنسخة الكاملة مثلا لكتاب اليوسي« المحاضرات » حصل عليها بيرك من إحدى الزوايا . كذلك بعض وثائق ما يسميها ب « مدرسة فاس » حصل عليها بفضل علاقاته الجيدة مع مدير القرويين . كل هذه العلائق القوية التي نسجها بيرك أكاديميا يندر أن تتوافر لغيره ، ولو في المغرب المستقل . والحال أن بيرك يعترف بجميل أصدقائه ، فنجده في مستهل كل كتاب أو في الهوامش الداخلية من مؤلفاته يقدم عظيم امتنانه لكل من زوده بوثيقة أو أنعم عليه بتصريح . . .

أن الحاجة إليه لازالت قائمة؟

3- بيرك في الكتابة المغربية

هل يبلغ التنازع حول بيرك ذات يوم درجة التنازع القائم بين المغاربة والتونسيين والمصريين وحتى الأوربيين حول من له الحق في الانتساب لابن خلدون؟

الواقع أننا نجهل إطلاقا مدى اهتمام هذه الأطراف بدورها ببيرك ما عدا الحماسة التي أظهرها المصريون وبالخصوص الإيطاليون في ترجمة بعض مؤلفاته .

إن التنازع في المغرب حول بيرك يبدو بالأحرى أنه – إذا كان له وجود- سيقتصر بالأساس بين تخصصات التاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية . نقول بالأساس إذ أن إنتاج بيرك يحتمل تخصصات أخرى مثل الدراسات اللغوية (مثلا مؤلفه «اللغات العربية في الوقت الحاضر») أو علم الاقتصاد (معظم كتاباته غنية بالتحليل والمعلومة الاقتصاديين) أو حتى الدراسات الإسلامية (مثلا مؤلفه عن إعادة قراءة (Re–lecture) القرآن) .

إن حصيلة الأطروحات والرسائل الجامعية عن بيرك هي فقيرة جدا إذ لم نعثر سوى على رسالة واحدة في القسم الفرنسي[9] . أما في

9 - إنها الرسالة التي أشرنا إليها في المقدمة وقد نوقشت بكلبة الدار البيضاء عام 1987 وهي للأستاذ عبدالرحيم عدناوي الأستاذ بنفس الكلية :
Abderrahim Adnaoui، Contribution à l'étude de la sociologie politi-- que du Maroc< l'apport de Jacques Berque، Faculté de Droit، Casa- .blanca، 1987
لنعط نظرة موجزة عن هذه الرسالة ، فهي على كل حال الوحيدة عن موضوع بيرك . بعد أن قدم الباحث

القسم العربي ، فإن الحصيلة هي بيضاء!

وخارج الحقل الجامعي ، تسجل ذات الملاحظة مع تحسن للقسم العربي . ففي المجلات نجد توفر ثلاث مقالات بالعربية ، إحداهن مترجمة[10] . وفي حين أن مساهمة المقالات المغربية بالفرنسية ترتفع بشكل ملموس ، فإنه لا يوجد أي مؤلف كامل عن بيرك لا في العلوم

لرسالته بنبذة عن حياة بيرك وتحقيب للمتن البيركي بحسب تطوره الفكري والإيديولوجي على السواء ، واضعا تصنيفا لكتاباته ومعددا إياها في 165عملا ، قسم الباحث رسالته إلى قسمين :
حاول القسم الأول رصد معالم « نظام تقليدي» على النطاق المغاربي . هكذا ابتدأ البحث عن» الهوية المغاربية» ، فلاحظ الباحث أن بيرك يشدد في هذا الصدد على مفهوم الأصالة التي تنطوي حسبه على العيش والانتظام بترابط مستمر مع البيئة أو الأرض (Terroir) . وبحسب بيرك ، اعتمادا على الباحث ، فإن النظام المغاربي يضمن نفسه بحكم خصوصيته هذه التي تضمن له التميز عن مجموعات أخرى (مثل المجموعة العربية - الإسلامية ، المجموعة المتوسطية والمجموعة= = الإفريقية) . هذا ، وإذا كان التكيف مع البيئة الزراعية هو وجود أعراف تحكم ذلك التكيف ، فإن هذا لا ينفي ، حسب الباحث بالاعتماد على بيرك ، تعددية حضور الإسلام ، إذ يرى بيرك أن هذين الشكلين يتعايشان إلى حد التنافذ والتداخل . بعد هذا ينحو الباحث إلى إدراج موقف بيرك من القبيلية (tribalisme) مسجلا أن بيرك يعتبرها بمثابة كيان يعكس تلائما عميقا مع البيئة المحيطة .
في القسم الثاني ، انبرى الباحث إلى البحث في الدولة المغربية داخل المتن البيركي ، فرصد أن كتابات بيرك تنتصر للبحث في السلطة والثقافة المضاديتن وفي الهامشي معتبرا إياهما أكثر أهمية في تفسير الظواهر السياسية بالمغرب . هكذا يعطي بيرك الأولوية لجوانب أخرى مثل الديني (العلماء - المرابطين) أو اجتماع الديني مع البيئة (حالة الزاوية الدلائية) أو المهدوية (حالة ابن أبي محلي) .
يعود عدناوي ليؤكد أن ما يميز المجتمعات الإسلامية ، كما هو حال المجتمع المغربي ، هو بحسب بيرك غلبة الجانب الديني داخل الحقل الاجتماعي . غير أنه يلاحظ بالمقابل أنه مع أنماط الإنتاج والحياة الاستعماريين وجد المجتمع المغربي نفسه في خضم تحولات مهمة سيعمل الاستقلال على تكريسها ، مضيفا أن الاشتراكية هي التي سيعمل على القطع مع الماضي» الشيطاني «للمجتمعات التي خضعت للاستعمار . وفي حالة المغرب ، فإن انتقاله من مرحلة المجتمع الذي ينتصر للمقدس إلى مرحلة « العقل التاريخي» (raison historique) يتطلب من جهة ، إعادة تفسير الإسلام من منظور إنساني يرى بيرك أنه متبنى من طرف القرآن ذاته حيث يكفي « الرجوع إلى قراءته ومعرفة تأويله» . ومن جهة أخرى ، فهو يدعو إلى إقحام الاشتراكية ضمن مسارات الخصوصيات الوطنية ؛ وهذا النداء يوجهه بالخصوص إلى فئة المثقفين . وفي نقطة أخيرة ، يعرض الباحث دعوة بيرك إلى تشكيل « هوية عربية- لاتينية « مشيرا بالمناسبة أن هذه المسألة هي « العنصر الوحيد في إنتاج بيرك الذي يتميز بكونه أكثر طوباوية وأكثر بعثا على التشكك في ذات الوقت» .
إن رسالتنا هذه تطرح نفسها إذن كامتداد لهذه الرسالة . صحيح أنها تعيد بعض مضامين القسم الثاني من رسالة عبد الرحيم عدناوي ، لكنها تضيف عليها بالأساس فيما يتعلق بالمغرب الكولونيا لي ومرحلة الاستقلال ، وهذا كله في الارتباط بقضية التغيير .
10 - انظر لائحة المراجع .

السياسية ولا غيرها . ففي علم الاجتماع حظي بيرك باهتمام لا بأس به (ويظل الأهم على كل حال) من قبل الخطيبي لكن كمجرد فقرة بجانب آخرين . وفي التاريخ ، رغم أنه لم يتم العثور على أية رسالة أو أطروحة أو مؤلف عن بيرك ، فالظاهر أن هناك وعي بارز بأهمية الرجل . على سبيل المثال ، نجد أن العروي في «الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (1830-1912) » يشير للرجل غير ما مرة مخصصا له بضعة صفحات عند تناوله للنظريات المفسرة للواقع القبلي (Le fait tribal) (ص 171-174) .

إن سهولة عد ما هو متوفر من كتابات عن بيرك يعكس ندرة الاهتمام به . لذلك تظل مساهمة مواطنيه هي الأبرز نسبيا مع أن المفترض أن يحظى بالعناية أكثر من قبل أصدقائه الذين يعنيهم إنتاجه بالدرجة الأولى ، وهو الذي صرح أن الحداثة بعد الاستقلال أصبحت بيد أبناء المغارب وهم وحدهم المسؤولون عن بناءها . وإذا كان هذا البناء يضم زوايا متعددة ، فإنه لا يمكن « أن نقصر في تقديم التكريم لعلماء الاجتماع والمؤرخين واللسانيين الذين حصلوا معلومات خاطفة ، والذين ثبتوا عبر النشر أو الترجمة وأدخلوا الترتيب والنظام في مادة تبعث على الخلط . لقد وفروا لأولئك الذين يجهلون هذه المادة نظرة أولية عن التاريخ المغربي . أكثر من هذا ، فإن المغاربة أنفسهم يلزمهم اليوم المرور في الغالب عبرهم للولوج إلى تاريخهم»[11] .

11 -Germain Ayache, Histoire et colonisation, Exemple du Maroc, in : Etudes d'histoire marocaine (du même auteur) , SMER, Rabat,

إذا كان هذا التكريم يستحقه مجرد أصحاب المعلومات الخاطفة ، فما الذي تستحقه بالضبط كتابات بيرك الثقيلة والوازنة؟

الحاصل أن إنتاج بيرك مهم . إنه يستحق كل العناية وبالأولوية من قبل المغاربة ذاتهم ، وعليهم أن يسرعوا في فعل هذا ، لا أن يأتي الأنجلوساكسونيون[12] أو الإيطاليون أو حتى الدنماركيون ويقومون بالمهمة بالنيابة عنا كما لو أننا قاصرين بكلا معنيي الكلمة . لنسجل إذن ضرورة العودة لبيرك ، على الأقل لمصلحتنا الخاصة .

قلنا أن الحصيلة الجامعية العربية عن بيرك هي بيضاء ؛ هل بإمكان هذا التقرير أن يدعي افتتاح الحصة؟[13]

1979, p. 6.

هذا ، وإذا كان عياش يوجه تحذيرا من إتباع أولئك الباحثين» على الأقل لأسباب تقنية ، إذ أن كثيرا منهم كانوا لا يتقنون أو حتى يجهلون اللغة العربية» ، فإن منطوق هذا التحذير هو بعيد ، بعد السماء عن الأرض ، عن أن ينطبق على بيرك . لنشير على سبيل المثل أنه قام بترجمة القرآن .

12 - فمثلا رصدنا أن أحد هؤلاء هو Michael Brett يبرز اهتماما خاصا بجاك بيرك ملاحظا تميزه من خلال مقالاته المتتالية على مجلة The Maghreb Review ، وبالخصوص مقالته « Jacques Berque And The History of The Maghreb» .

13 - ربما نكون بدورنا كوننا لم نكتب هذا التقرير بالفرنسية يرجع بالأساس إلى عدم القدرة على الكتابة بهذه اللغة (فضلا عن كوننا تنتمي للقسم العربي للعلوم السياسية بالكلية) . مع ذلك ، نقول أن من يستطيع التحرير بالفرنسية ويجيد معها العربية عليه أيضا أن يدلو بمساهمته في حقل التعريب . أما إذا كانت الكتابة بالفرنسية هي حبا في الفرنكفونية أو تملقا لها ، فنذكر أن بيرك ذاته ، وهو الفرنسي الذي قال أن الفرنسية هي التي وحدها تستطيع إسعافه ، أكد أن «مستقبل الفرنكفونية في البلدان المغاربية يمر عبر إعادة تعريبها (Ré- arabisation)» (Maghreb، histoire et sociétés، p 223) . ولإسعاف بيرك ، مع أنه يهضم العربية «وليس مجرد العربية القياسية الحديثة (Modern، Standard Arabic) ، بل أيضا العربية الكلاسيكية ، عربية اليوسي والمعدني وابن خلدون والفرزدق والشعر الجاهلي ، فإنه إذا ما حظي هذا التقرير يوما بالنشر أو حتى توصية بالنشر ، فقد نستطيع عندئذ نشر نسخة بالفرنسية . حبا في الفرنكفونية؟لا . بالأولى للبرهنة على أن نبوءة بيرك قابلة للتحقق ، أي أن إعادة التعريب هي من يخدم الفرنكفونية . وهل من أراد أن يحلق في سماء التأليف في المغرب عليه بالضرورة أن يحلق بجناحين فرنسيين .؟ هل بالضرورة أن يقنعنا المرء بكفاءته فقط إذ يكتب بالفرنسية؟ الحال أن بعض الكتابات بالفرنسية التي أطلعنا عليها حول موضوع بيرك هي ، حسب تقديرنا ، ذات مستوى رديء ، وقد تظل رديئة وإن كتبت بالمريخية (نسبة إلى المريخ) .

الفصل الأول:
الدولة بالمغرب في منظور بيرك:
من النشأة إلى الانتشار المجالي



«هذا الوحش الجديد البارد ، الدولة ، مهما كان وطنيا ،
هل يكون المآل الوحيد لكل هذه الصراعات»[14] .

كيف يصور بيرك مسألة ولادة الدولة في المغرب؟ وما هو الحيز المكاني الذي تنشط فيه؟ وما هي الأطراف التي يقدر بيرك بأنها مؤهلة للعب دور معين في بناء الصرح الدولتي المغربي؟

إن أطروحة بيرك في هذا الإطار تقوم على أن الأطراف المالكة للسلطة الدولتية في المغرب أو الطامحة إليها هي ذات قدرات متفاوتة . ومن جهة أخرى ، فإن المجال الذي تنشط فيه هذه الأطراف ليس واحدا ، بل هو يتوزع إلى فضائين مختلفين هما : المدينة من جهة والبادية (أو القبائل) من جهة أخرى .

المبحث الأول: السلطة بالمغرب: مستويات

يهتم بيرك بمسألة الدولة في المغرب من حيث تتبع نشأتها التي يرجعها إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر مع مجيء السعديين . إن السلالة السعدية في نظره هي التي أخذت في إرساء مفهوم للدولة يتجاوز الأبعاد الدينية . وفي المقابل ، فإن بيرك يلاحظ أن السلالة العلوية هي من ستدفع بهذا الاتجاه إلى حد أبعد ، خاصة عندما سيقيم الشرفاء العلويون نوعا من المباعدة بينهم وبين بقية مكونات المجتمع المغربي ، سواء الطامحة للسلطة أو عموم الناس .

14 -Jacques Berque, Langages arabes du présent, Edits Gallimard, 1974, p 18.

إلا أنه بالرغم من هذا الاهتمام بمدى اتجاه الدولة نحو مركزة بؤرة السلطة بالمغرب ، فإن بيرك يبحث أكثر في مستويات متدرجة[15] ، إذ هناك « في كل ربوع المغارب ، في القرن السابع عشر كما في كل الأوقات ، مجموعات وأفراد وهيئات نفسية واجتماعية تشير إلى أن المؤسسة المهيمنة تخفي أو تقمع . فحتى على المستوى الكلي الذي هو ، في حالة المغرب ، مستوى الملكية الشريفة ، فإن المجتمع يخفي المستويات والتنوع والحركة التي من إحدى مهام الإسطوغرافيا الحالية العمل على إظهارها»[16] .

إن هذه المستويات هي بقدر ما تتنوع فهي تكشف عن تفاوت في إمكانية تركيز السلطة أو نشرها على المستوى الوطني . غير أن ما يجمعها هو كونها لم تصل بمجهوداتها الخاصة إلى الحد الذي وصلت إليه السلالتين المذكورتين ، أي إقامة دولة مركزية تستأثر أكثر بالمشروعية «المرجع الذي ينخرط فيه الجميع بشكل موحد ومتنافس فيه »[17] .

---

15 - إذ يقدر بيرك أن « ما يهم في التفسير السوسيولوجي كثيرا ليست هي الوقائع بقدر ما تهم علاقاتها . إن الكثرة الكثيرة من الباحثين جهلوا المستويات و النسب ، إذن معنى واتجاه هذه المجاميع» . انظر :

Jacques Berque, de l'Euphrate à l'atlas, 2- histoire et nature, la bibliothèque arabe, Edits, Sindbad, Paris, 1978, p 465.

16 - Jacques Berque, Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb, XVII siècle, Edits. Sindbad, Paris, 1982 , p161.

ومن الآن فصاعدا سنشير إليه باختصار « Ulémas »

17 - Ulémas, p 22.

الفرع الأول: مستوى مركزي: السلالة والتأسيس

« فهؤلاء الشرفاء ، خلافا لافتراض شائع لم يكونوا لا «مرابطين» ولا « أولياء» ولا أنصار زاوية ، ولا متدينين . إنهم يعملون أولا كفاعلين سياسيين وكمؤسسي دولة»[18] .

يناقش بيرك المستوى المركزي في الدولة بالمغرب من خلال نموذجين هما : السعديون من جهة أولى والعلويون من جهة ثانية . ففي تقديره للتجربة السعدية يلحظ بيرك أن سلطتها لم تستند أساسا على المشروعية الدينية . أما بخصوص العلويين ، فإن بيرك يلاحظ أنهم سيزكون الاتجاه الذي دشنه السعديون إذ أن تنحيتهم للخصوم استندت بشكل خاص على إقامة «مسافة» لم تلعب فيها العوامل الدينية إلا دورا ثانويا .

I -السعديون : من الديني إلى الدنيوي

يلحظ بيرك أن نمو سلطة السعديين لم يرتكز لا على تضامن قبلي ولا على مذهب ديني ؛ فقد فرض هؤلاء جبايتهم بشكل ثابت ضدا على الزوايا . فإذا كانوا هم أيضا قد بزغوا حسب التقليد ضمن حركة ذات حجاج ديني ، فإنهم «سرعان ما سيعاودون الرجوع ضد كل ما كان رباطا للجهاد ، وضد ما كان على البلد من زاوية أو مركز للتصوف»[19] .

ومن جهة أخرى ، إذا كانت السلالة السعدية قد سجلت في

18 - Ulémas, p 266.
19 - Ulémas, p 24.

أوائل عهدها انتصارات أخاذة على المعتدي المسيحي ، فإن ما أعقب ذلك من تحديث وانتظام في الجيش وعلاقات دبلوماسية وتجارية مع الأجنبي يكشف أن» الدولة الدنيوية- وهكذا أسميها حتى وإن كان الشرفاء هم من يحملون لواءها- كانت تتقوى»[20] .

أكثر من ذلك ، يتساءل بيرك : إذا كان عبر عنصر الشرف أو قواعد المقدس حيث يمكن تفسير صعود نجم السعديين ، فكيف يمكن فهم الانمحاء النسبي الذي كان يمس آنئذ شرفاء آخرين مثل الأدارسة أو حتى العلويين المستقرين أيضا بالمكان منذ مدة؟[21]

إن أطروحة بيرك تقوم على أن السعديين إنما تمكنوا عبر»الحمية الحربية والأصالة الجنوبية»[22] من خلق «جهاز مركز يعكس على طريقته حركة من هذا النوع تشاهد على الضفة الشمالية من المتوسط»23 . إلا أنه إذا كان بيرك يرى أن النجاح السعدي لم يستعن كثيرا بالمقدس ، فهو يستدرك قائلا أنه» عندما لا يكون المرء ذاته دينيا ، فإنه يبادر نحو سياسة دينية ، وهكذا فعل السعديون : فتنمية مواسم المولد النبوي جاءت كمحاولة لخلق رأي عام عبر تحالف بين الجمهور والاحتفالية»[24] .

20 - Ulémas, p 21.
21 - Ibid, pp. 41-42.
22 - Ibid, p. 37.
23 - Ibid, p. 38.
24 - Ibid, p. 37.

II – العلويون : إرساء «المسافة» اللازمة لقيام الدولة

يعتبر بيرك أن صعود نجم سلطة العلويين لم يعتمد خلافا لما هو شائع على عنصر الشرف الذي يتمتعون به .فالمولى الرشيد كان محاربا «شجاعا»والمولى إسماعيل كان فاتحا ذا مقدرة فائقة على التعبئة ؛ فكلاهما لم يكن يشبه المرابطين[25*] في شيء . فبالرغم من النفوذ الشريفي الذي كانا يحظيان به ، فإنه يبقى من الصعب معرفة الحدود التي وظفوا ضمنها مثل هذا النفوذ كمطية للوصول إلى سدة الحكم[26] .

إن تكاثر الشرفاء حسب بيرك يستجيب لحاجة اجتماعية ، خاصة وأنهم في ظل مجتمع نسبي يشكلون ذروة في الأنساب . إلا أن بيرك يدعو إلى الاحتياط في تقدير أمر هذه الحاجة التي «تدخل في إطار الشعور والعرف وحتى الفلكلور»[27] . في حين أن ما هو موضوعي هو كون الشريف يتجاوز الالتزامات الاجتماعية للفقيه[28] ، كما أن نجاحه يجب عزوه بشكل أقل إلى «الموجة العميقة المثارة من قبل الاحتلال المسيحي بقدر ما يجب عزوها إلى الفارق الذي تمنحهم إياه من جاهزية

---

25 × – ينبغي التفرقة بين «المرابطين»(les marabouts) والمقصود بهم الحركة الدينية التي كانت تتبنى نهجا معينا في تأويل النص الديني وتطبيقه وبين المرابطين (les Almoravides) والمقصود بهم السلالة التي حكمت المغرب بعد انهيار سلطة الأدارسة .

26 - Jacques Berque، Al- Youssi< Problèmes de la culture marocaine au XVII siècle، Centre Tarik Ibn Zyad، 2ème édition، mai 2001، p. 88.

و من الآن فصاعدا نستعمل اختصار « Al- Youssi » للإشارة إلى هذا المؤلف .

27 - Ulémas, p. 34.

28 - Ibid, p. 36.

سوسيولوجية مقارنة مع خصومهم» .[29] هذا بالإضافة إلى أن « السلالة ظلت وفية لأصولها البدوية ومهدها القروي . إنها تختار عملائها من خارج فاس ، كما أنها ترهب الأدارسة»[30] .

من خلال هذا الإجراء الأخير ، فإن بيرك يلاحظ تفوق العلويين على خصومهم الأدارسة الذين كانوا «منشغلين كثيرا بتاريخ ذو محتوى محلي وبلدي»[31] ، في حين تجهد السلالة العلوية إلى إقامة«مسافة نظامية مع الحركات الشعبية»[32] ، وبالخصوص على عهد المولى إسماعيل الذي دفع بهذه «المسافة» أو «المباعدة» (Distanciation) [33]إلى حدود قصوى لم يجرؤ عليها أحد من قبل .

لقد عمل المولى إسماعيل على التأسيس لهذه المباعدة من خلال مستويين :(1) مستوى طوبوغرافي بإنشاء ستة وسبعون قصبة عملت على عزل السلالة وخدامها عن بقية أفراد المجتمع (2) ومستوى سوسيولوجي يتمثل في إنشاء جيش غريب عن البلاد مكون من الزنوج (عبيد البخاري) ومرتبط بشخص المولى إسماعيل ؛ ويعتبر بيرك أن «هذين المظهرين من التجديد يتماشان والتمهيد لإرساء الدولة»[34] .

إن عنصر الشرف يبدو لبيرك كمساعد على تعميق هذه المباعدة ،

29 - Ibid, p. 42.
30 - AL- YOUSSI, , p 82.
31 - Ulémas, p 42.
32 -Ibid, p 43.
33 - Ibid, p.235
34 - Ibid, p.235.

ذلك أن «كبير الشرفاء» (Le Grand Chérif) يحكم المغرب لأن تفارقه أو تباعده النموذجي يمنحه حرية أكبر من غيره في التصرف تجاه العوامل السياسية الأكثر تنوعا : القبائل ، العلماء والبورجوازية والتي يدخل معها في فعل وتفاعل»[35] .

الفرع الثاني : مستوى طرفي : التجربة والخطأ

«والحال أننا اهتمنا على العكس بما ينبع من ما يترجم الاحتجاج ضد الرسمي ، وبالها مشي ضد المركزي (. . .) أعتقد أنه قد يكون من المفيد اليوم تكريس كتاب ل «معارضي الشرفاء»»[36] .

ينتقد بيرك الأطروحة الشائعة في البحث الإسطوغرافي التي «تبنت منظور السلطة المركزية والثقافة السائدة وعملت على تنقيص قيمة الحركات القطاعية (sectorielles) ، حتى لو أن إحدى هذه الحركات ، كما في حالة علماء (وليس «مرابطين» ، من فضلكم[37] !) الزاوية الدلائية[38] ، استطاعت أن تتخذ شكل دولة مشروعة خلال ربع

35 - Ibid, p.267

36 - في إشارة منه إلى المقابلة مع كتاب ليفي بروفنصال الشهير» مؤرخي الشرفاء» ، والذي يشيد بيرك بصاحبه ويعتبره أستاذه ومرشده في هذا النوع من الأبحاث التاريخية المنصب على دراسة مختلف مصادر السلطة في المغرب (Ibid، p. 233) .

37 - ينتقد بيرك هنا استعمال مصطلح " المرابطين" من قبل الأثنوغرافيين والمؤرخين الفرنسيين الذين " تعسفوا في استعماله إلى حد كبير بدون تدقيق في خصائصه المميزة عن أشكال دينية أخرى : صوفية الزوايا ، النفوذ الشريفي ، الطقوس الشعبية مهما كانت درجة أصوليتها ، وأخيرا إسلام العلماء (Ibid، p. 40) وعن الدلائيين تحديدا ، يقول :» إنه لا يمكننا أن ننعتهم (رجال الزاوية الدلائية) ب « المرابطين» حسب المعنى المكرس لهذه الكلمة من قبل السوسيولوجيا الكولونيالية ، وهذه حجة مستقاة من الهالة التي كان يتمتع بها اثنان منهما على الأقل « (Ibid، p. 84) .

38 - إن الدلائيين هم أسرة عالمة ماجدة من مجاط من قبلية لمتونة الصنهاجية اشتهرت بالاشتغال بالعلم والدين حتى أن حظيت بظهائر تقر لها بحق التصرف في إقطاعات . تكاثر عدد الدلائيين من أبناء الشيخ

قرن . فهي وإن كانت تبدو متصفة بالفوضوية ، فإنها تبدو لنا شاهدة على الغنى والخلق»[39] . ومع أنها ذات أهمية أقل يصف بيرك تجربة أبو / أبي محلي (أو ابن أبي محلي كما يزيد بيرك علاوة) بكونه «الرجل الذي أراد أن يكون ملكا» .

وبالإضافة إلى هذين المستويين تشهد حالة العلماء على تنوع في التعامل مع السلطة المركزية التي بتقويها كانت تدفعهم في اتجاه» وظائف محددة في حين أنهم حديثا ، في الدلاء كما في فاس ، كانوا يميلون إذا أمكن القول إلى تمام سوسيولوجي متعدد التخصصات»[40] .

I- الزاوية : الدلائيون «أفق وطني مفوت»[41]

يرفض بيرك وصف الفترة بين نهاية الحكم السعدي وبداية الحقبة العلوية بالفوضوية ، ذلك أن مثل هذا المنظور يعني» التموقف من جهة السلطة المركزية والاتباعية[42]* الحضرية اللتان كانا يعانيان حقيقة في

أبي بكر وأحفاده في زاويتهم التي أصبحت مدينة كبيرة عمروها طوال ثلاثة أجيال متعاقبة ، ثم انتقلوا إلى فاس ومراكش وتلمسان حين خربت زاويتهم . فازداد إشعاع الدلائيين الفكري ، وشغلوا وظائف دينية سامية من قضاء وإمامة وخطابة وتدريس ، وبقي العلم والأدب والصلاح متوازنا فيهم حتى أواخر القرن 19 . وألفوا عشرات الكتب في مختلف الفنون ، وألف الناس كتبا في مناقبهم وأسانيدهم الصوفية .
وبالجملة تعتبر الأسرة الدلائية من أكبر الأسر العلمية بالمغرب في القرون الأربعة الأخيرة وأكثرها إنتاجا فكريا . اشتهر منهم نحو أربعين عالما وأديبا . ولكن لم يبق منها اليوم إلا أسر قليلة في فاس والرباط . إلا أن ما يركز عليه بيرك هو الدور السياسي للأسرة التي كانت في نظره قاب قوسين من أن تنشئ دولة بالمغرب في النصف الثاني من القرن السابع عشر . (لفظة "الدلائي" : معلمة المغرب ، الجزء الثاني عشر ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، مطابع سلا ، 1981 ، ص4067) .

39 - Ulèmas, p.41.
40 - Ibid, p.146.
41 - Ibid, p.81.
42 × - هذه الكلمة هي ترجمة للفظة الفرنسية « académisme» التي تعني حسب Le Robert « تقيد شديد بالتقاليد الأكاديمية أو تقليدانية مفرطة» .

هذه الفترة من عدة تقلبات»[43] .

يرى بيرك أن الأمة المغربية في القرن السابع عشر ستجد تمثيلها لحظة في سلطة الدلائيين التي خلال فترة جيل ستمارس «سلطة معترف بها ، ففيها يبدو أن كل شيء قد تراكم : الاستقلال المحلي والمواصفات القرآنية والنفوذ الثقافي[44] والميزة الحربية وأخيرا «الاعتراف» من قبل النخب المؤهلة»[45] . ذلك أنها تمتعت ب» بيعة نخبة العلماء والأكابر المفترض فيهم ترجمة رغبة الأمة»[46] . بل إن رئيس الزاوية الدلائية ، الذي كان يتصرف كسلطان شرعي ، امتدت سلطته على كل «ما سيسمى فيما بعد بالمغرب النافع»[47] ، بل وأبرم المعاهدات مع ممثلي الدول الأجنبية[48] .

إن الزاوية الدلائية شكلت دولة ذات سلطة حقيقية «لا يشكل فيها الروحي سوى النسخة الراقية ؛ فإعادة توزيع الخيرات والأغذية وممارسة التحكيم والشفاعة أو التوسط والحماية وتنشيط دائرة موسعة من الأنصار تزداد توسعا»[49] كلها شكلت قواعد متينة لنمو سلطة الدلائيين .

43 - Ibid, p.81.

44 - يرصد بيرك أن الزاوية الدلائية قد تألقت في العلوم الدينية وفي الشعر العربي ، وبذلك أضحت مركز مجهود في الأسلمة والآداب العربية . ومن الناحية المعمارية ، فقد حول رئيس الزاوية عاصمته إلى المكان الجديد الذي استقربه بانيا فيها جامعا عظيما وزين فاس ومدن مغربية أخرى بتجهيزات مختلفة : قناطر وجدران ومدرسة فاس الجديد و أضرحة الأولياء و دور الضيافة . . .

45 - Ulèmas, p.25.
46 - Ibid, p.146.
47 - Ibid, p.108
48 - Ibid, p.110.
49 - Ibid, p..94.

إلا أن جاك بيرك يعتبر أن الخاصية الأساسية التي تميز الزاوية الدلائية تتمثل في «الديالكتيك الذي كانت تود إقامته بين الثقافة الإسلامية وبين الكيانات التي تدافع بشراسة عن استقلالها في الأطلس»[50] ، أو بمعنى آخر في «تجذرها العميق في البيئة والمجال الاجتماعي واللغوي والروحي»[51] ، إذ هي تستمد قوتها من الإمكانيات الخلاقة التي تتيحها البادية أو بالأحرى من جراء «الدينامية التي تجرها تلك الإمكانيات تجاه البناء الوطني»[52] . لذلك ، فبمجرد ما أن تفقد قليلا من الاحتكاك بقواعدها فهي تخاطر بأن « تعرض نفسها لأن تكون في وضعية مثاقفة . غير أنها ، من جهة أخرى ، ما أن تزرع الأصالة من جديد انطلاقا من ذات الاحتكاك ، فإنها قد تفاقم طلاقها مع المدن الكبرى للشمال وعرب السهول»[53] .

من هذه الورطة التي تدفع إليها ضرورة الاختيار بين أحد هذين الحدين ، يخلص بيرك إلى أن الزاوية الدلائية فوتت بناء الدولة الوطنية بالمغرب التي أوشكت على إقامتها ، ذلك أنه « بدون الصعود المظفر للمولى الرشيد العلوي ، فقد كان من الممكن أن تكون الزاوية الدلائية هي من أرست الدولة- الأمة في مغرب القرن السابع عشر»[54] . إلا أنها ، مع ذلك ، فقد أسهمت في تيسير هذا الأمر . فعند انهزام

50 - Ibid, p.94.
51 - Ibid, p.102
52 - Ibid, p.112.
53 - Ibid, p.112.
54 - الأمر الذي يعتبره بيرك أنه « لم يتحقق إلا بعد مرور نصف قرن» (Ibid, p. 25) .

الدلائيين ، فهم «على ما يبدو لم يبعثوا أية ضغينة أورد فعل من قبل رعاياهم القدامى ؛ وهذا ينبئ كثيرا عن كيف كان حكمهم»[55] ، خاصة وأن أي انشقاق من طرفهم» كان يمكن أن يكون خطيرا بالنسبة لوحدة البلاد»[56] . إلا أن أحمد الدلائي ، بعد هزيمته وبخلاف أسلافه ، هاهو يتجه نحو المهدوية التي يظل ، حسب بيرك ، أبو محلي أبرز نماذجها في عصر» الأزمات المرابطية « أو « توازن الانحطاط»[57] .

II- المهدي : أبو محلي» الرجل الذي أراد أن يكون ملكا»[58]

يقارن بيرك أنه إذا كان رجال الزاوية الدلائية يدعون أنهم من جانب المرابطين ، فإن الموحدين ومهدويتهم رافقا طموحات أبو محلي . فهو يلحظ أن التاريخ المغاربي[59] يقدم خاصية معينة تدور حول فكرة

55 - Ibid, p.123.
56 -Ibid, p.120.

57 - هذين العبارتين هما ترجمتين على التوالي لكل من :
» la crise Maraboutique «و« Ibid، p. 14). « L'équilibre de la décadence)
. Ibid، p. 45 - 58

59 - نستعمل نعت « المغاربي» نسبة إلى «المغارب»التي تسمى أيضا «المغرب العربي» أو « المغرب الكبير» . كان الفرنسيون ، ولازالوا ، يستعملون مصطلح Maghreb Le ، وفي هذا تبعهم الأنجلوساكسونيون وجيرانهم اللاتين ، وذلك رغبة في نزع الحمولة العروبية والإسلامية عن المنطقة التي تسمى كذلك «الغرب الإسلامي» . كما يوظف الفرنسيون ، وخاصة الأوائل منهم ، كلمة Berbérie (نجدها مثلا بكثرة عند روبير مونطان) . أما جاك بيرك ، فلا يستعملها إلا نادرا (وفي بعض كتاباته الأولى مثل (Etudes d'histoire rurale maghrébine (1938)) وهو واع بحمولتها . كيف لا يعي بحمولتها وهو الذي يضيف أيضا مفردة جديدة هذه المرة هي» بَرْبَرِسْتان» في إطار انتقاده للظهير البربري (كما سنرى في الفصل الثاني) الذي يرى أن الغاية منه لم تكنَ إنشاء بربرستان الأمازيغ هذه . هؤلاء ، ورغبة منهم في التقليل من شأن الطابع العربي / العروبي والتشديد على الانتماء الأمازيغي ، فهم يفضلون بالأحرى مصطلح «المغارب» الذي هو بدوره تقسيم يعود إلى فترة الفتوحات الإسلامية بين « مغرب أدنى»و» مغرب أوسط» و» مغرب أقصى» . يفضل أولئك أيضا اصطلاح «المغرب الكبير» الذي يحظى بترحيب أكثر من قبل أنصار الوحدة بين دول المنطقة التي هي خمس حاليا . وفي مواجهة هؤلاء وأولئك ، نجد أن تقارير المنظمات الدولية المختلفة ، وخاصة تلك التي تتبنى ذات تصنيف الإستراتيجية الكوكبية للولايات المتحدة الأمريكية مثل البنك الدولي ، تتبنى عبارة «شمال إفريقيا» التي رغم دلالتها الجغرافية الواضحة ، فإنها حسب البعض تخفي تضمينات إيديولوجية ليس أقلها الرغبة في فصل الوطن العربي إلى قطاعين : قطاع

بغض أو كراهية الدهر[60] . إلا أن بيرك يرى أن المغاربيين رغم كونهم «مستسلمون إلى البؤس الكبير لهذا العالم الأرضي ، فهم يقابلون ، مع ذلك ، الفساد والظالمون برقابة من نوع النقد القانوني والاستنكار الأخلاقي والوعي الميتافيزيقي بلغز الجور»[61] . وفي هذا الإطار تندرج محاولة أبو محلي[62] الذي» وضع نفسه خلال ما تبقى من حياته في وضعية صرخة . غير أنه لم يلجأ إلى الخيال المعتزل . إنه اعتزم النضال عبر جميع الوسائل التي كانت متوفرة في عصره . فما هي هذه الوسائل؟ إنها :الدرس الفقهي والكتيب والهجاء والرسالة الخارقة وتعبئة الأنصار» .[63]

هكذا إذن انبرى أبو محلي لتغيير مبادئ المجتمع بمحاولة العودة إلى صفاء الإسلام ؛ فتجربته ، رغم قصر مدتها ، هي «متألقة

أسيوي وقطاع إفريقي . وفي بداية الألفية الثالثة ، نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية شرعت في سحب تسمية « شمال إفريقيا» مقحمة إياها في ما تسميه «الشرق الأوسط الكبير» الذي يمتد حسبها من المغرب إلى باكستان ، في حربها على ما تسميه « إرهابا» . تظل إذن هذه المنطقة ساحة معركة مسميات ، أو بعبارة بيرك» معركة رموز» . ومن جهتنا نحن ، وفقد اخترنا مصطلح «المغارب» ضمن هذا التقرير ، لا لشيء إلا أنه أكثر اختصارا(؟!) ، ولأنه بالخصوص يقدم فرزا واضحا لإفراد حالة المغرب ضمن كتابات بيرك التي تتناول أيضا» مغربين» آخرين هما : الجزائر وتونس . هكذا نقول « المغارب « ويقابلها نعت « المغاربي» ، ونقول «المغرب» وننعت أهله ب»المغاربة» ، فيما ننعت أهل المغارب ب «المغاربيين» . وبديهي أن صفة ما هو متعلق بالمغرب هي «المغربي» اللهم إذا أصبحت تسمية المغرب ذاتها تثير مثل ذلك التعدد ، المحيِّر أكاديميا ، وذو الدلالات ، المضمنة والظاهرة ، سياسيا .

60 - يشير بيرك إلى أن هذه المسألة ليست خاصة بالمغارب ، بل تنتشر في مناطق أخرى ، كما أن المسيحية والإسلام» يتقاسمان في الحقيقة ذات الرؤى فيما يتعلق بالتمردات المهدوية والتقنيات التنجيمية» (Ulémas, p. 53) .

61 - Al- Youssi, p. 83 .

62 - لا يستسيغ بيرك وصف أبي محلي ، كما تفعل الإسطوغرافيا الكولونيالية ، بكونه « مرابط» ، بل يقول « يبدو لنا ، على العكس ، سواء حسب جدالاته مع الولي الجزائري (سيدي الشيخ) أو حسب إنتاجه المخطوطي كثيولوجي ، أو بالأحرى كإيديولوجي» .(Ulémas, p. 64) .

63 - Ulémas, p.61

ومدهشة» ،[64] هذا التألق الذي يتأتى أقل من «ثورته ضد الخصائص المرتبطة بفوضى مجتمعه بقدر ما تتأتى من ما يحركنا عندما يعلن الحق في التمرد ضد السلطان المخل بواجباته»[65] . إن هذا الخطاب الثوري ، الذي يستدعي «مهديا يبرز حسب الجموع كلما كانت قضايا الإسلام تعرف اختلالا كبيرا»[66] ، يتكاثف في حالة أبو محلي بأنه يعكس «شرارات طاقة جنوبية مبتلعة»[67] أو «ما هو مؤكد في كل الحالات ، بأنه يعكس وباضطراب شغف الجنوب» .[68] إلا أنه بخلاف قوة توسع السلالتين المشار إليهما أعلاه ، فإن «مملكته»[69] لم تتجاوز حدود هذا الجنوب . بيد أنه بعد موته ، فإن «سكان الصحراء الغربية الوسطى رفضوا تصديق موته قائلين فقط أنه «مختبئ[70]» ، مما يفيد تجذر التصور المهدوي في البيئة المحيطة واستعدادها لتقبله واستمرارية هذا الاستعداد[71] .

64 - Ibid، p. 25.
65 - Ibid، p 71.
66 - Ibid، p 73.
67 - Ibid، p 71
وبفعل هذا الازدواج في تفسير انبعاث سلطة معينة وتقويها مثل سلطة ابن أبي محلي ، نجد بيرك يقرر أن « كل التاريخ الحدثي في المغرب لا يمكن فهمه إلا في سياق الحركات الدينية والسياقات القبلية أو الإيديولوجية أو المورفولوجية» (Al -Youssi، p. 42) .

68 - Ulémas، p. 61

69 - ففضلا عن كونه « مثقف يتجاوز عصره» إذ يرى بيرك رغم أنه « قد يكون من غير العادل مقابلة عقلانية أبو محلي مع عقلانية Theologicopoliticus التي هي في الواقع متأخرة عنه (1670) ، فهذا لا ينفي كونهما إجمالا يتناولان ذات الطائفة من المشاكل » (Ulémas، p. 72) ، فقد « استقر أبو محلي بالقصر الملكي (بمراكش) ويقال أنه تزوج أرملة مولاي أبو فارس ، أحد الأبناء الثلاثة للمنصور (الذهبي) ، وأمر بضرب العملة وجعل الخطبة تقال باسمه ، كما أن جبايته توسعت إلى أحواز بعيدة من المدينة » (Ibid، p 77) .

70 - Ulémas، p. 45 .

71 - عن هذه الاستمرارية يقول جاك بيرك في موضع آخر وعن زمان آخر» إن مهدوية مترسخة (-Endé

III- العلماء[72] : بين الممانعة و« تقسيم العمل»

يعتبر بيرك أنه مع انتهاء محاولة الدلائيين انتهت بلا رجعة الفترة التي كان فيها العلماء يبدون كمؤسسين مضيفا أن هذا هو حال» أغلبية المثقفين[73] الذين بقدر ما يفقدون وظيفتهم الاحتجاجية يلجون النظام القائم بدون أن يحتفظوا في ظل هذا النظام بأية وسيلة عمل غير النصيحة»[74] إذ أن المغارب ، ومن بينها المغرب ، «باندماجها في الأزمنة الحديثة ، فهي تدخل أكثر فأكثر مقارباتها الدينية ضمن تقسيم العمل الاجتماعي»[75] .

ورغم أن هذا التراجع قد تلقى تقييدات إضافية ناتجة عن» تأكد

---

mique) لم تكف أبدا عن خلخلة الجنوب المغاربي :إن الزوبعة المثارة حديثا أيضا عبر مواعظ ماء العينين والهيبة أثبتتها جيدا» .انظر :

- Jacques Berque، De l'Euphrate à l'Atlas، 1- Espaces et moments، Edits. Sindbad، Paris، 1978، p. 197.

ومن الآن فصاعدا نستعمل اختصار «De l'Euphrate 1» للإحالة على هذا الكتاب وتمييزا له عن الجزء الثاني من ذات الكتاب الذي سنرمز له ب «De l'Euphrate 2» .

72 - إنه في الواقع نستعمل هذا المصطلح هنا بكثير من التحفظ والتجاوز ، ذلك أن بيرك يستعمله بمعاني متعددة . فتارة يرادف العلماء بالعلماء في المجال الحضري حصرا(هذا مع أنه يعد عالما ،وأي عالم ، الشيخ الكبير اليوسي معتبرا إياه نموذجا للعالم القروي) الذين يدخل فيهم أيضا نموذجي الفقيه والقاضي (ف» العالم بالخصوص ، أولا وقبل كل شيء ، هو القضاء « (Ulémas، p. 68) . تارة أخرى يمطط المصطلح ليضم ، إلى جانب الفقيه ، الثيولوجي وكذلك العارف . وتارة ثالثة نراه يبعد النموذج الأخير عندما يتحدث عن «إسلام العلماء» في مقابل إسلام الزوايا أو المرابطين أو المتصوفة ، أو الولي» الذي يضمن داخل هذا المجتمع العلاقات مع الغيب أو السر» (Ulémas، p. 68) .

73 - بالرغم من أن بيرك يتساءل فيما إذا كان استعمال مصطلح «أنتلجنسيا» في حالة العلماء هو في غير محله((anachronique) محتفظا بالتسمية كما تقدمها الإسطوغرافيا العربية (العلماء) ، فإنه يردف بالقول أنه قد تبين له أن « بعض العلماء ، عبر تأويل دقيق لدورهم النظامي أوعبر المزاج الفردي أو من جراء الظروف ، قد لعبوا حقا دورا إيديولوجيا وسياسيا . وهكذا كانوا يضخمون معارضة ذات آفاق عديدة (Ulémas، p. 268) .

74 - Ulémas، p. 122.

75 - Ibid، pp. 146-147.

(سلطة) الدولة أو عن دور رؤساء الزاوية»[76] ، فإن « الأمير المغاربي على العكس (عكس ممارسة الملوك المسيحيين) المنصوح من قبل العلماء يخشى أن يتلقى ضربة قوية منهم[77] ، ومن هنا يرجح الأمير سياسته عوض الميل إلى استعمال سلطته المادية . ذلك أن هؤلاء الطْلبة بصفتهم كهنة الشريعة يحظون باحترام كبير وسط المغاربة»[78] .

في إطار هذه العلاقة الأخيرة ، أي علاقة العلماء بالمجتمع المغربي ، يرى بيرك أن ما يسود فيها هو» نوع من المسار الذي نجرؤ على تسميته بالديمقراطي[79] لولا أن العلاقات القائمة بين هذه الهيئة (العلماء) من جهة وبين التجارة الحضرية من جهة أخرى هي علاقات تذهب في الغالب إلى الانتماء إلى ذات العائلات .[80] إن نقطة الضعف الثانية

76 - Ibid، p. 229 .

77 - خاصة وأن تأثيرهم يتنوع ، فقد يؤثرون « 1- مباشرة باعتبارهم علماء شرع إذ يتم طلب فتواهم 2- عبر أحكامهم التي تحسم النزاع 3- بشكل غير مباشر عبر النصائح التي يوجهونها للسلطة 4- عبر الحسبة التي يمارسونها على الأخلاق 5- عبر القدوة الأخلاقية كما الثقافية لسلوكهم ولغتهم وحتى مظهرهم» (Ulémas، p227) . من جهة أخرى ، يلحظ بيرك أن السياسة ، مع ذات التقسيم العمل الاجتماعي المشار إليه ، أصبح ينظر إليها كخدمة معتبر هذا أمرا جديدا أو ثوريا . كما أن السلطان يلزمه حسب العلماء الالتزام ببعض الواجبات من مثل « 1- استعمال الضريبة في أهداف محددة 2- الحفاظ على القدرة الدفاعية والهجومية للشعب وتقويتها ضد الكافر 3- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (Ibid، p 246) . هذا العنصر الثالث (الأمر بالمعروف) الذي يعتبره العلماء من محض واجباتهم .

78 - Ulémas، p. 238 .

79 - ذلك أن هذا التبادل الديمقراطي تؤطره ، من جهة المجتمع ، كون وسائل عمل العالم لا يمكن أن تكون غير تلك التي يريدها له المجتمع . إنه ينبغي له أن يستحقها عبر الكفاءة والوقار ، وهذا أمر لا ينجحون فيه دائما (Ulémas، p. 228) . . ومن جهة العالم ، فإنه باستجابته لهذه الشروط ، فهو يكون مترجما لقيم متعالية لهذا المجتمع يندر أن تتوافر في غيره (Ulémas، p. 229) . غير أن بين هذا المجتمع وبين السلطة السياسية يرصد بيرك « إن المجموع يحتوي إلى حد ما على السلطة ولكن عبر التباعد والجمود» (Ibid، p. 229) ، في حين يترك بيرك السؤال مفتوحا حول إمكانية ومدى إمكانية مراقبة السلطة من قبل المجتمع .

80 - إلا أن بيرك كما يرفض الحديث عن وجود الطبقات الاجتماعية في غير المجتمع الصناعي ، فهو يرفض أيضا اعتبار هيئة العلماء طبقة أو فئة مغلقة (caste) التي يرتكز تحديدها على عوامل ثقافية وتميل إلى أن تصبح متوارثة . فالعلماء حسبه» بالرغم من أنهم يجندون غالبا ضمن بعض العائلات المحظوظة المسماة

تنتج عن تشعب[81] النموذج الحضري الذي ربطت الهيئة العالمة مصيرها إلى حد ما بتوسعه»[82] .

وإذ سبقت الإشارة إلى أن حالة العلماء تكشف عن تنوع في التعامل مع السلطة المركزية أو الأمير ، فقد حان الوقت لاستعراض هذا التنوع الذي يشمل التفرقة بين المجال الحضري ، الذي يجمله بيرك في فاس ، التي بدورها تكشف ازدواجا في تعامل علمائها مع السلطة المركزية ، وبين فضاء البادية الذي يمثل له بيرك بالجنوب المغربي ، وبالأخص عبر تجربة العالم اليوسي .

1- في فاس : بين «السخرية» والانخراط

يلحظ بيرك وجود فئتين من العلماء : العالم المتمركز في المدينة ، و فاس هي النموذج ،[83] وبين العالم البعيد عن هذا المركز المديني . في الحالة الأولى يرصد التدخل السلطاني الكبير في مجال العلماء ، كما

وبحق « بيوتات العلم» ، فإن التوارث أو الأيلولة (dévolution) ليست أبدا هي القاعدة . إن النجاح في التعلم القرآني أو المعارف السامية والتحصيل ، والتي هي= = مفاهيم متحركة وفردية ، لنتنبه لهذا ، تمنح دائما للموهوبين أكثر وللمستحقين أكثر ، سواء أتوا من المدينة أو من « ألآفاق» ، سبيلا للترقي أكثر فعالية . إن العلماء حسب فهمنا يشكلون هيئة (corporation) أكثر مما يشكلون فئة مغلقة (caste) . إن هذه المفردة الأخيرة ، بالمقابل ، يبدو أنه بالإمكان انطباقها بالأصح على الشرفاء»(Ulémas، p. 255) .

81 - يقدم معجم مثل «المنهل « ترجمة لهذه الكلمة ب» جزرية « التي تقترن بالمعنى الحقيقي للمصطلح ، غير أن ذات المعجم لا يقدم مقابلا للمعنى المجازي للكلمة الذي نحن في حاجة إليه هنا ، فقدونا أن مفردة « تشعب» قد تناسب الغرض .

82 -Ulémas, p.229.

83 - فإذا كانت مراكش تترجم « ارتباطا عميقا مع نواحيها ، و تظل ، في حالة الرخاء كما في حالة الشدة ، جنوبية وإقليمية ، فإن فاس ، في المقابل ، المقطوعة عن عمق محيطها(Hinterland) ، لا تعبر إلا بغيرة كبيرة عن حركة عامة . فكل تاريخها الإداري أو البلدي هو من إنشاء متواصل ودقيق الذي يعتمل بين حقيقة مادية جد محتواة وبين دلائل دائما تعكس الطموح « انظر :

-J. Berque, le Maghreb entre deux guerres, 3 ème édition, Edits. du Seuil, Paris , 1978, p 188.

أن هؤلاء لا يتورعون بدورهم في طلب مثل هذا التدخل .

إلا أن بيرك يرفض تبسيط هذا الإقرار أو تعميمه . فهو يعتبر تجربة عبد القادر الفاسي[84] نموذجا يشير إلى التحفظ من الاقتراب من السلطة التي «عامة تفقد المثقفين جزءا أو كلا من نفوذهم الخاص» . أما في حالة ما إن حصل ذلك الاقتراب ، فإن عادته (عبد القادر) هي ممارسة واجبه وحقه في النصيحة ، وبعدها كان يكف عن التردد على الأمير . بيد أنه إذا كان هذا التوجه يعكس القدر الجديد الذي أضحى لـ « رجال الله» بعد تعمق تقسيم العمل ، فإن بيرك يعتبر أن ذلك الموقف لا يخلو من «سخرية» مقصودة ربما بسبب أن مؤسس السلالة حشرهم في هذا المركز الجديد أو لأنه» أمكن لها (أي تلك السخرية) أن تكون إحدى طرق القداسة»[85] .

وفي مقابل هذا النموذج يقدم بيرك صورة أخرى عن علماء فاس ممثلة هذه المرة بالعالم التسولي الذي تولى أمر الإجابة عن استشارة الأمير عبد القادر لعلماء فاس بشأن الجهاد . فضمن الجواب عن نص الاستشارة يرصد بيرك أن التسولي «يظهر حذرا شديدا في إعطاء تكريم لغير من هو سلطانه الخاص ، مولاي عبد الرحمان ، والذي يعترف أنه طلب منه ملاحظات»[86] .ومن جانب هذا الأخير (أي

84 - يشيد بيرك بالقيمة الاجتماعية لعبد القادر الفاسي معتبر إياه» رجل دين قادر على أن يضم في مرجعيات المثالية وفي سقوطه الاجتماعي الحياة الدينية لوقته»(Ulémas، p 137) .ومن الناحية العلمية ، يرصد بيرك أن إجازته «منحت الاستشراق ولوجه المبكر إلى كل التقليد الأكاديمي » (Idid، p. 158) . .

85 -Ulémas، p. 131.

86 -Jacques Berque, Maghreb, histoire et sociétés, S.N.E.D Alger-

السلطان) يلحظ بيرك» تدخله عن كثب في تحرير ، أو على الأقل في تأليف وتقديم النص(نص الفتوى) . إن هذا يسمح حتى بالشك في صدق الشهادة»[87] . إن توجها مثل هذا يعكس بنظر بيرك مدى تشبث العالم ب» قانونه الحضري»[88] في مواجهة تهديد القبائل ؛ كما أنه» إذا تسنى للتسولي ممارسة نوع من النقد السياسي[89] ، فإن هذا بالإضافة لكونه سيجعل مكانته في خطر ، فسيذكره وبغرابة بأشخاص آخرين من المغرب المعاصر عرف عنهم أنهم وبخوا السلاطين ، وبالخصوص الشيخ الشهير اليوسي»[90] .

2- في الجنوب : نقيض «الاتباعية المدينية»[91]

إن نموذج اليوسي بنظر بيرك هو من طينة أخرى[92] . إنه « يقوم

Duculot, 1974,p.73.

ومن الآن فصاعدا نستعمل اختصار « Magh. hist. et soc. » للإشارة إليه .

87 -Ibid، p. 73

88 -Ibid، p. 73

89 - غير أن بيرك يتوصل عبر تحليل دقيق وتاريخي لفحوى الفتوى أن التسولي لا يمكن أن يكون معاتبا غير سلطان المغرب عندما يلوم بشكل محجوب « سلطان الجزائر» بعد أن لم يعد بالجزائر سلطان مع انهيار الإيالة التركية وقدوم الفرنسيين . لكن يبقى العنصر الأهم الذي يهمنا إبرازه هنا هو أن اللوم لم يتم إلا في شكل « إشارات غير واضحة »(Ibid، p. 76) .

90 -Ibid، p. 76.

91 - هذه العبارة هي ترجمة ل : (Académisme citadine) التي تمثلها « ما يمكن أن يسمى وبشكل مشروع مدرسة فاس (L'Ecole de Fès) التي تألقت في القرن السابع عشر عبر المختصرات والحواشي» . في :

Jacques Berque, Partons pour le Maroc (en collaboration avec Julien couleau), 1ère édition, PUF, 1977, p.214.

92 - إن اليوسي بالنسبة لبيرك ، الذي أفرد له مؤلفا خاصا من حجم 144 صفحة ، هو نموذج للعالم القروي القادم من الجنوب والذي لم يرد لنفسه مسار علماء فاس الموالين للتقليد ، بل انتصر هو للتجديد والخلق . إنه ينحدر من منطقة خارج فاس ، لكنه أقام بها مدة وتمرد على اتباعيتها ليبرز كمجدد ومسجلا بذلك تنوعا في الثقافة المغربية . فبيرك يقول عن كتابه « المحاضرات »أنه يعكس « المحاولة التركيبية الوحيدة التي تعكس مواقف وحياة علامة من القرن السابع عشر » (Al- Youssi، p). 136 . إنه بنظره يعكس البعد الجنوبي لتلك الثقافة الذي يظهر أيضا عند اليوسي في التمرد ضد السلطة القائمة (مولاي اسماعيل) الذي بعث

بالقطع مع نوع مديني يجد مترجميه الأكثر سموا في الجماعة الأرستقراطية للفاسيين»[93] ، وهو بذلك «من العلماء البالغي الندرة في زمانه بالمغرب الذين لم يرتادوا على مدرسة فاس إلا عرضيا»[94] . هذا جعله يخرق قانونهم الحضري المشار إليه ؛ فهو «لا يتردد في انتقاد السلطان مهما كان خطيرا ، وذلك ضمن شكلي الدافع الثيولوجي والطموحات العملية للحظة»[95] ، إذ أن «من يعرف كيف يقرأ ، سيلحظ أن رسالة الشيخ ينصب منطوقها الأساسي على تبيان شروط السلطة المشروعة ، في حين أن منطوقها الثانوي يفيد في الواقع أن هذه الشروط لا يستوفيها السلطان (مولاي إسماعيل)»[96] .وإذا كان هذا التحريض يظل أكاديميا ، فإن بيرك يتساءل» هل كان بإمكانه تعدي ذلك؟»[97]

إليه اليوسي برسالتين توبيخيتين ويقدم فيهما النصيحة (انظر فقرة «semonce au Monarque» في Al- Youssi ابتداء من الصفحة91) . كما أنه لما أمره المولى اسماعيل بولوج فاس ، فقد رفض متذرعا باعتلال صحته . ذات التهرب سيظهر عقب الاختلالات التي عرفتها المدينة ذاتها بعد وفاة المولى الرشيد ، إذ كان اليوسي يتبرك بأولياء الشمال المغربي مثل مولاي عبد السلام بن مشيش ومولاي بوسلهام ويكتشف التنوع المغربي . كل هذا النمط من السلوك من قبل اليوسي هو بنظر بيرك محسوب له ومقصود من قبل هذا الجنوبي الذي لا يعتبر الملك أو السلطان مقدس بالنسبة له كما يفعل بوسييه (Bossuet) بل إن الملك بالنسبة لليوسي « ليس إلا شرعيا وخاضعا لجملة بنود»(Ulémas، p. 247) . إلا أن بيرك يحذر من المغالاة في مقارنته مع زملائه على الضفة الأخرى للمتوسط حيث ساد النقد العقلاني قرنين قبل زمنه هو ، هو الذي ظلت نظرته إلى التاريخ محبوسة بالغشاء الأخلاقي . لذلك ، فبالرغم من أن « مدينة اليوسي تعاصرت مع مدينة Fénelon ، فهي لم يكتب لها نجاحا ماديا»(Al- Youssi، p. 93) . إلا أن اليوسي ، مع ذلك ، هو بنظر بيرك مؤرخ أيضا ، بل إنه حسبه اسم جمع : ففضلا عن اليوسي المؤرخ ، هناك اليوسي العالم الشرعي واليوسي الأديب واليوسي المتصوف و اليوسي الفيلولوجي واليوسي الموسوعي أخيرا ، خاصة في مؤلفه « القانون» .

93 - Al- Youssi، p. 15
94 -Ulémas، p. 242.
95 - Al- Youssi، p. 93.
96 -Ulémas، p. 246.
97 - Ibid، p. 245.

المبحث الثاني: الانتشار المجالي للسلطة بالمغرب

بعد أن تم استعراض مختلف المستويات التي تترجم بشكل متفاوت التنازع من أجل السلطة في المغرب، يبدو من المناسب الآن الانتقال إلى معرفة كيفية انتشار هذه السلطة في الميدان المغربي الذي يتوزع إلى مدينة (غالبا هي فاس ضمن كتابات بيرك) ثم الفضاء الأرحب الذي تضمه البادية، المجال الحيوي للنشاط القبلي. إن التاريخ المغربي حسب بيرك لا يفهم إلا في سياقات مختلفة، من بينها السياقات القبلية والمورفولوجية عامة، إذ يرى بيرك أنه «منذ زمن بعيد والمبادرات تنبع من هذين المصدرين المتباعدين: الداخل المتعدد والشرس، والمدينة المنتشرة. فالحيوية التي توجد بين هذين القطبين في المغارب المعاصرة لازالت تطرح المشاكل الأكثر خطورة لرجل الدولة»[98].

الفرع الأول: المدينة

نتناول ضمن محور المدينة هذا فاعلين آخرين تتيحهما مادة جاك بيرك هما: البورجوازية والفقيه. وإذا كان الاقتصار على هاتين الفعالتين قد يبدو تعسفيا، فإنه تجدر الإشارة إلى أن بعض المستويات السابق عرضها يستوعبها كذلك المجال المديني الذي ينشط بداخله أيضا عمل الفقيه (الذي تشكل وظيفته إحدى وظائف العالم)

98 - Magh. hist. et. soc. p. 119.

وتحركات البورجوازية[99]. هذين المكونين اللذين لا يقدم عنهما بيرك معطيات مفصلة ومجمعة على غرار الفاعلين السابقين، وإنما أتت المعلومات بشأنهما مشتتة في بعض إنتاجاته. إن الفقيه يبدو له كممثل لـ «القانون الحضري» الذي أشرنا إليه، ولا يمكن عزل سلطته عن التحالف الذي يقيمه مع البورجوازية وقانونها ذاك اللذان يؤثثان فضاء الحاضرة.[100]

I- البورجوازية: «الأخلاق التجارية القديمة»[101]

نشير أولا إلى أن بيرك لا يتناول البورجوازية هنا باعتبارها تمثل وضعية اقتصادية واجتماعية تقابل الطبقة المعروفة بالبروليتاريا، بل إنها تقوم عنده هنا بمقام الطبقة التجارية أو نبلاء فاس[102]، هذه «الجوهرة البورجوازية المغذاة والمحمية بتنازع عريق بين تقاليدها التجارية وتمدنها

99 - يقسم بيرك وظيفة العلماء إلى أدوار ثلاثة: « الأول منها ينبني على تطبيق الضوابط بهدف الحفاظ الصارم على أصول الإسلام، وهذه هي وظيفة الفقيه. أما الدور الثاني فهو يجنح نحو المعرفة المغلقة للحكمة الإلهية والكون: دور الثيولوجي. فيما يتعلق بالعارف، فهو يعمل على قاعدة الذوق التي تجعله يقيم علاقة مع العالم الآخر» (Ulémas، p. 68).

100 - بالإضافة إلى هذين الفاعلين الحضريين (الفقيه والبورجوازي) يضيف بيرك الصانع التقليدي معتبرا أن هذا الثلاثي (التاجر وطالب العلم والصانع التقليدي) كان يشكل ارتكاز توازن المدينة القديمة (J. Berque، le Magh. entre deux guerres، p. 77). ولما كانت بيبليوغرافيا بيرك في الحدود التي اعتمدنا عليها لا تقدم تفصيلا واضحا عن وضعية الصناع التقليديين في فترة ما قبل الحماية، وبالأخص عن مدى قوتهم في علاقتهم بالسلطة (فبيرك مثلا لا يشير لثورة الدباغين 1873-1874)، فقد ارتأينا أن نتناول هذه الفئة ضمن فقرة التحول الاقتصادي بالفصل الثاني من هذا التقرير حيث يسهب بيرك في الحديث عنها في إطار التغير (السلبي عموما) الذي لحق النشاط نتيجة الوضعية الكولونيالية والتغير الذي خلفته.

101 -Le Maghreb entre deux guerres، p. 179.

102 - إن البورجوازية بهذا المفهوم الذي يقدمه بيرك في هذا الموضع يبدو أنه يترادف مع أحد المعاني المتعددة التي يقدمها معجم le Robert لكلمة « Bourgeois » والذي هو: « مواطن بلدة أو مدينة في العصر الوسيط يتمتع بمكانة متميزة».

الشكلي»[103] . إن خاصية البورجوازية تكمن إذن في ارتباط نشاطها بالمجال الحضري ، لذلك يبرز حذرها من كل ما يصدر عن خارج هذا المجال[104] .

إن البورجوازية الفاسية حسب بيرك ، على تراتبيتها ، تمتلك الوعي بنخبويتها ، فهي »تتميز عن الشرفاء ، الفقراء منهم والأغنياء ، وعن العلماء وعن الحلقات الموجهة . إنها واعية بتضامنها . هل يتبعها الشعب في هذا ؟ إذا كان الأمر على هذا النحو ، فإنها كانت ستشكل عندئذ سلطة رهيبة . هذه السلطة التي كانت عندئذ من الممكن أن تكون ، كما في أوروبا الغربية ، في طور النمو»[105] . إلا أنها لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الحد ، ذلك أن «المصلحة بين أشياء أخرى تمنعها» .[106] بل أكثر من هذا ، فإن « بورجوازيا من فاس ، الذي يجعل من نفسه مرابيا عديم الشفقة على حساب الآخرين ، يفضل الاستلاف للحفاظ على مرتبته»[107] ، مما يفيد غياب الإسهام من جانبه في تطوير المجهود الاقتصادي[108] .

103 - Jacques Berque، le Maghreb entre deux guerres، 3ème édition (Revue et augmentée)، Editions du Seuil، Paris، 1978، p. 177.

ومن الآن فصاعدا ، نستعمل إيجاز « Le Magh. ent. 2 guer. » للإشارة إلى هذا المؤلف .

104 - يبرز هذا الحذر مثلا في موقف فاس تجاه ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي التي تلقتها بورجوازية المدينة بحذروريبة شديدين ، فبدأوا في سحب أبناءهم من المدارس الفرنسية بحيث أنه» إذا كان جبلي الشمال (بن عبد الكريم) سيعمل على إعادة فاس إلى سلطة إسلامية ، فإن هذا سيكون محنة قاسية لهاته البورجوازية المتخبطة في النظام . إن شيئا ما بداخلها بدأ يرتجف » .(Ibid، p. 182) .

105 -Ulémas، p. 177.

106 -le Magh. ent. 2 guer. p. 185

107 - Ibid، p. 256 .

108 - فحظ أحد عناصر مثل هذا التطوير الذي هو التقنية مثلا» لم يذهب بعيدا ، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار الصناعة التقليدية المدينية في الأندلس وأعمال معامل صنع السلاح . إن المجتمع المغربي لهذا

في سبيل الحفاظ على هذا الامتياز ، فإن البورجوازية لا تتورع عن تسخير بعد المعرفة لصالحها . هذا البعد الذي هو «موضوع نوع من التوافق بين السلالة الحاكمة من جهة ، وبين البورجوازية من جهة أخرى»[109] . إنه عبر هذا التوظيف لا يغدو الفقه مثلا سوى « الوجه المانح للمشروعية في القيسارية . فهو يؤول إليه بلا شك إدانة هذا الشكل من التعاقد أو تلك السلعة المستوردة . ومع ذلك ، فإن هذا لا ينفي أنه يمنح للطبقة التجارية تضامنا واقعيا . إن هذا الحصن من الشرعية وهذا التواتر في النظام يضمن للبورجوازية دفاعا ليس فقط ضد أي طارئ سوسيوسياسي ، وإنما أيضا ضد التجديد التقني . فهنا ، وكما في الصين وعلى خلاف أوروبا ، فإن تأثير الاكتشافات الكبرى لم يزعزع النظام السائد» .[110]

إلا أن «الفاسي ، مثل الفرنسي ، هو بطل القضايا المتجاوزة والقضايا السابقة لأوانها . من هنا انشغاله وعدم خضوعه»[111] . فبعد أن تلفظ المقاومة القبلية آخر أنفاسها ، سيقوم البورجوازي باستئناف النضال

الوقت ، ولوقت طويل أيضا ، يبدو لنا أنه كان غنيا أكثر في الآراء والكلمات مما هو في الأشياء . إن نواقصه الأكثر وضوحا كانت تمس الحياة المادية وأدواتها» (Ulémas، pp. 182-183) . كما أنه من الناحية المالية والتجارية ، فإن « التاجر النبيل بفاس الحاكم على مستودعه (دار السلعة أو لهري) والذي يوسع من عمليات مضاربته إلى مناطق بعيدة ، قد يكون محتكرا ، مضاربا أو على الأقل متلاعبا ، وأحيانا حتى مرابيا ، إلا أنه ليس بنكيا ، وأقل من ذلك ليس مقاولا أو مبادرا » Magh. hist. et soc، p. 132)) . أكثر من هذا ، فإن بيرك يتحفظ في إطلاق عبارة « الأنشطة الاقتصادية » على أعمال هذه الهيئة . فالفلاحة مثلا لا تعتبر بمثابة مهنة ، بل بمثابة نمط وجود ، كما أن « الوقفات التي تتخلل أطوار النشاط ، أو عمليات الفتور التي يشهدها ، ليست لها أية علاقة بما نسميه» أوقات الفراغ»» (Ulémas، pp. 187-188)

109 - Ulémas، p. 241.

110 -Ibid، p. 228.

111 -Le Magh ent. 2. guer، p. 193.

الوطني بوسائل تمتح من الخصم ، بل إنه هو من سينشر الحماس الوطني في بقية ربوع المغرب بعد أن سيمتد المصير المحتم الخاص بالمجال الحضري إلى باقي أجزاء المغرب[112] .

II- الفقيه : ممثل « القانون الحضري»

رأينا للتو مدى تداخل سلطة الفقيه مع البورجوازي الذي لم يسهم فعلا في تقدم اقتصادي للمغرب . ومن جهة أخرى ، يلحظ بيرك أن «المبادئ الأخلاقية ليست مضبوطة مباشرة على حسب التسيير الاقتصادي»[113] .إلا أن ما يميز الفقهاء بالخصوص هو دفاعهم عن تطبيق الشريعة في مواجهة القبائل ، ذلك أن « الفقه كان يسود في المدن والسهول . أما البقاع الجبلية والمتراجعة جغرافيا ، فقد كانت تحتفظ بقطاعات واسعة من التنظيم الأمازيغي حيث أن المجموعة تقيم تنظيماتها الخاصة[114] . فهنا حيث يمكن ،عبر تحالف الإطار الطبيعي والطاقات الجماعية ، لخصوصية أن تبزغ وتنضج ، كان يتشكل نظاما فرعيا يأخذ أحيانا ، كما في بلاد الشلوح ، شكلا كتابيا وتداوليا» .[115]
وفي مواجهة مختلف الطامحين إلى السلطة كان الفقهاء يحفون القادم

---

112 -Ibid، p. 199.
113 -Ulémas، p. 223.
114 - غير أن هذا لا يعني حسب بيرك أن الاجتهادات القضائية الأمازيغية تتجاهل الدين كلية ، بل إنها تخلط طوعا بين «-1 قانون إيكولوجي مرتبط ارتباطا وثيقا بنمط الحياة -2 نظام مرتبط بما توحي به ظروف مماثلة ل» العرف» القبلي من بلاد الرافدين إلى سوس-3 ثقافة أصيلة ومتوافقة بشكل مختلف مع الثقافة الإسلامية والعربية»(le Magh. ent. 2guer، p. 238) . فالفقه» وفر دائما للعرف مكانة مساعدة ، لكنه لم يكن ليحل محل الشريعة » Ulémas، p. 197)) .
115 - Ulémas، p. 195

الجديد بمساندتهم ، وذلك»كطريقة لاستعادة الأسبقية المدينية»[116] .

إن الفقيه في نظر بيرك يمثل الغليان في مواجهة الصوفي الذي يمثل الهدوء[117] . إن الفقهاء يجهدون أنفسهم بالخصوص إلى التوفيق بين حركات الأشياء والأشخاص وبين تطبيق قواعد الشريعة . إنهم حسب بيرك يقومون بهذا العمل» من المستوى الأكثر ابتدائية ، مستوى المدارس القرآنية والطلاب القرويون إلى مستوى العالم الشرعي الذي على السلطان أن يأخذه بعين الاعتبار»[118] .غير أن الجهاز عرف تراجعا كبيرا في أهميته رغم المحاولات الاستثنائية التي كانت ترجح كون الشريعة هي في خدمة الناس ولا تكلفهم المستحيل ، وأبرزها محاولة اليوسي[119] . هذا التراجع سيتعمق أكثر بعد قدوم القانون الوضعي

116 -Al- Youssi، p. 16.

Jacques Berque، de 'Euphrate à l'Atlas، 2- Histoire et nature، la - 117
. bibliothèque arabe، Edits. Sindbad، Paris، 1978، p. 473

ونختصر من الآن فصاعدا الإحالة على هذا المؤلف ب»De l'Euphrate2« تمييزا له عن اختصار الجزء الأول»De l'Euphrate1 « .

ذلك أن المقدس في المغارب بنظر بيرك يضم ثلاث مستويات « -1 مقدس لاصق بالأرض بمعنى ما -2 مستوى إسلامي ذو بعد ثقافي خاص -3 الدعوة إلى التصوف والزهد»(462 De l'Euphrate2، p» . .
ويقابل هذه المستويات الثلاث ثلاثة قطاعات : يضم الأول منها المدن العتيقة والحواضر الكبرى المزودة بتجهيز اقتصادي وثقافي تتخلله قدرة على الضم والجذب (Irrédentisme) جد مؤثرة ونموذجه هو فاس . يمثل القطاع الثاني الفضاء البدوي (Bédouinisme) وهو يستثير استياء العلماء .إنه المسرح المثالي للمرابطين والطرقية . أما القطاع الثالث فيضم المنطقة الناطقة بالأمازيغية الغنية بالقداسة والبدع معا وتناقضات أخرى شتى (Ibid، pp. 473-474) .

118 -Ulémas، p. 40.

وتحت هذا الدور الاجتماعي للفقهاء ، الذي يظهر أيضا في ممارسة الوظيفة القضائية ، ترتسم مسارات أخرى لهم من مثل « الغاية الثقافية التي يستهدفها الفقهاء والقيام بالمراقبة الاجتماعية القائمة على التنسيق بين المثل والمصالح والكلمات والأشياء والمبادرة الفردية والنظام الجماعي وأخيرا المسار الذي يشمل الدفاع عن الهيئة التي يمثلونها »(Ulémas، p. 196) .

119 - إلا أن اليوسي هو بالنسبة لبيرك ليس فقيها ، كما أنه لم يقبل مهمة القضاء ، بل اهتم باللغة والشبولوجيا ، لكن مشاكل العامة حتمت عليه تحليل التحلل التدرجي لمجتمعه دون أن يقدم حلولا لدرايته بما يؤدي إليه هذا من مشاكل التكفير أو الزندقة .هذا وكما أنه نادى ب« الضرورة» و« المصلحة» ، فإن ما تفرد

حيث سينحصر مجال الفقه في المادة العقارية والميراث إذ يفشل في فهم الواقع الأرضي الناشئ عن علاقات تقنية جديدة ، لكنها خارجة عن اختصاصه[120] .

الفرع الثاني : البادية

يرى جاك بيرك أنه «إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى كانت إفريقيا الشمالية لازالت تحتفظ بجهات لن أقول عذراء ، لكنها سالمة من حيث أنها كانت تفلت من السلطة المركزية . ففي المغرب ، حيث كانت توجد على شكل صفائح كبيرة ، كانت تحمل اسما تقليديا هو السيبة» ،[121] معتبرا أنها حسابيا تشكل ثلثي البلاد وأن «مخزن الفرنسيين»[122] يعمل بدون توقف على تحجيم مساحتها[123] . وضمن

به اليوسي حسب بيرك هو تحليل الذريعة قائلا بضرورة إيلاء رد الشر الأولوية عند مراعاة القواعد الشرعية . إلا أن اليوسي ، الثيولوجي المسلم ، لم يكن ليقر ب» العادة» (مكتفيا بأن الله هو السبب الكافي) . غير أنه ، وتحت تأثير الطب وفن التكهنات ، أقر بمسألة العادة ما دامت أنها لا تصل إلى هجرة السنة . إنه بهذا حيث تميز بنظر بيرك عن الثيولوجيين الكلاسيكيين وعلماء الكلام ، مع أنه لم يتملص من طروحاتهم (مثلا مقولة السنوسي ب» بدعة الأسباب») (انظر الفصل السابع من مؤلف Al-Youssi بعنوانProblèmes juridiques من ص 94 إلى ص 102) .

120 - Magh. hist. et soc. p. 117.

121 - Magh. ent. 2 guer. P. 10.

ويعرف بيرك السيبة بالقول» إنها في الواقع مظهرا من الأزمات التي تعرفها السلطة المركزية في المغرب والتي تتمثل في كون القبائل تكف عن طاعة السلطة المركزية ، وأن هذه السلطة تفشل في تحصيل الضريبة ، سواء عبر المحلة السنوية أو حتى عبر ا الحملات المتتالية التي يجد السلطان نفسه فيها أحيانا في صعوبة» (Magh. hist. et soc. p. 117) .

122 - Magh. ent. 2 guer. p. 10.

وفي المقابل ، فبيرك يوظف أيضا مصطلح السيبة في تحليلاته قائلا ب « سيبة الشمال « (Ibid، p. 154) في إشارة منه إلى تمرد الريف (أو من رؤية أخرى ، مقاومة الريف) .

123 - وفي نهاية الحقبة الاستعمارية يخبرنا بيرك أن المغرب كان يضم 600 قبيلة ، كل منها يضم متوسطا قدره 10000 نسمة ، أي بالضبط ما يجلبه السوق (الأسبوعي) Magh. hist. et soc. (p. 120) .

هذا الفضاء ، الذي هو مجال القبائل ، كانت تنشط فعاليات عدة يرى بيرك أن أهمهما هم القواد الذين كانوا يعملون على «قتل الديمقراطية الأمازيغية»[124] ،والذين سيجعل الاستعمار من بعضهم» قوادا كبار» يعملون على سحق ما بقي من تلك الديمقراطية[125] .

I- القبائل : الوثنية والتمرد

« إن القبيلة في شمال إفريقيا كانت تبدو لي كتوفيق بين التجمعات القديمة وبين التاريخ المعاصر ،بين منطق معين وبين معطيات الوسط»[126] .

إن بيرك يفهم القبيلة في مقابلتها بالمدينة . إن المدينة من خلال الفقيه تطرح نفسها كحامية للشريعة . وإذا كانت الاجتهادات القضائية الأمازيغية لا تغيب كلية الثقافة الإسلامية ، فإن بيرك لا يحسم بإطلاق في القضية الأخيرة قائلا أن «حسب الرأي المخالف (الرأي القائل بأن بنيات دينية وسحرية هي التي تؤطر مجتمع الشلوح في القانون والاقتصاد والفلكلور وحتى اللغة) ، فإنه تبعا لطابع دنيوي واضح وتوجه علماني للمؤسسات ، وفي جميع الحالات استقلالها النسبي عن الدين وجاذبيته ، حيث إن ذات الوسط(الشلوح) يؤكد

124 - Magh. ent. 2 guer، p. 58.

125 - وفي هذا الإطار يلاحظ أن « فقط أولئك العارفون مثل روبير مونطان- الذي كان بالضبط في هذه الفترة يناقش أطروحته في السوربون- كانوا يدركون أن « القائد الكبير» هو المدمر الأكثر تأكيدا لهذه الديمقراطية الشلوحية التي عليها كان يراد الاعتماد . إنهم يعرفون هذا الأمر ، لكنهم لا يقولونه دائما «Le Magh. ent. 2 guer. p. 187)) .

126 - Le Magh. ent. 2 guer. p. 117.

ثقافته الأصيلة»[127] ذلك أنه من الصحيح أن « البركة تحظى بالتقدير بل « يتم خدمتها « ، لكنها مقيدة بإحكام في نظام من تقسيم العمل ، حيث أن المرابط لا يتجاوز الوظيفة المعزوة له من قبل المعتقد والأخلاق . فهو إذ يحشر في وظيفته وإعفاءاته واستثناءاته ، فإنه يلزمه في المقابل ترك المجال في باقي الأمور للنظام المدني» .[128]

وإذا كان بيرك يقرر أن» ما هو مؤكد هو أن القبيلة ، المرتبطة إلى حدما بالتوسع الهلالي ، انتشرت بحكم تواجد نظام حكم على الطريقة العربية»[129] ، فإنه يضيف بأن «هذا النظام كما يعمل في الواقع فهو طبعا يحتمل ردوده»[130] . لذلك ، فهو ينتقد ما ذهبت إليه أقلية من مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1863 بكون «التقدم سيكون مغيبا والهمجية مستمرة في حالة بقاء هذا «التكتل العربي»»[131] . وإذ يعتبر بيرك أن الأمر يتعلق بملاحظة بارعة إذ يستعمل مصطلح» التكتل العربي» ، فإن هذا الموقف لا يقبله ، بل إنه «يثير الأسف وتناقضه الوقائع»[132] ، ذلك أن القبائل تتوزع إلى قبائل أمازيغية وأخرى عربية .

أشرنا إلى أن دولة الأسرة الحاكمة لم تتأسس على أي تضامن قبلي ، بل إن المولى إسماعيل عبر الابتعاد عن الشعب حيث هيمن

127 – Jacques Berque، Structures sociales du Haut – Atlas (suivi de retour aux Seksawa par. J. Berque et Paul Pascon)، PUF، Paris، p. 310.
128 – Ibid، p. 315.
129 – Magh. hist. et soc، p. 34.
130 –Ibid، p. 34.
131 –Ibid، p. 107.
132 –Ibid، p. 107.

على القبائل ، فأنشأ جملة من القصبات راقبت تنقلات الانتجاع القبلي ، خاصة الأمازيغي منه ، ذلك أن» التجمعات الأمازيغية بحكم أصالتها من جهة- المتضادة من جهة أخرى مع فوضويتها- كانت دائما على مر السنين ، بما في ذلك الطور الاستعماري ، مقموعة من قبل السلطة المركزية»[133] .

إلا أن القبائل لم تكن تستسلم دائما[134] ، خاصة عند ضعف تلك السلطة . فما أن مات المولى إسماعيل تسلحت القبائل وثارت في رمشة عين ، حتى أن بيرك يتساءل «هل يمكن تجريد رجال القبائل من سلاحهم بشكل نهائي؟»[135] . الواقع أن عملية النزع هاته لم تتم إلا إلى غاية 1934 .

كما أنه قبل هذه الفترة كانت مسألة إزالة السلاح عن القبائل تلقى معارضة من قبل بعض العلماء . فمثل هذه العملية التي تمت من قبل المولى إسماعيل «تم استقبالها من طرف العالم اليوسي كانحراف عن السلطة وغلوا في الكفر والشؤم»[136] . ويبدو أن معارضة اليوسي هذه كانت صائبة ، إذ أن القبيلة هي في نظر بيرك من دشنت المقاومة المسلحة وهي التي مهدت للمقاومة السياسية ذات الطابع الحديث ،

133 - le Magh. ent. 2 guer. p. 239.

134 - خاصة وأن مؤسس الأسرة الحاكمة كان يلقى صعوبة في «غزو حاسم للجبل العالي مادام أن هذا الأخير يتواصل بسهولة مع حلفائه في سوس كما له حلفاء في الشمال وفي الجنوب : العرب وإمكانيات المؤامرة الدولية عن طريق الموانئ الأطلسية» (De l'Eupharate1، p. 70)

135 - Ulémas، p. 258.

136 - Al- Youssi، p. 92.

خاصة بعد التضرر الذي لحق الانتجاع القروي[137] الذي تم جعله يدفع نفقات الحماية .

II- القايد : عنف «السلطة الشخصية»

تمت الإشارة إلى أن القايد هو من قضى على ما يسميه بيرك بالديمقراطية الأمازيغية ، بل إنه يرى أن الدكتاتورية قد « أصبحت ظاهرة طورية من السلطة الشخصية في كل الجنوب المغربي مزيحة النزعات القديمة للديمقراطية التلقائية[138]» إذ أن القياد مارسوا« ابتزازا انتهى بأن شكل جوهر وظيفة القايد»[139] .

إلا أنه من ناحية التوسع الأفقي فهؤلاء «الطغاة الجبليون» لم

137 - يتساءل بيرك « من يدري فيما إذا كان تقزيم الانتجاع قد ساهم ، عبر طرق خفية وبطيئة ، في الثورات اللاحقة» (le Magh. ent. 2 guer. p 128) خاصة وأن هذا كان هو مصدر عيش الجمهور القروي ، وخاصة الأمازيغي الذي « قدم ومند مدة طويلة للسلطة الغربية (occidentale) مجال عملها بامتياز ، ومجال استشاراتها الشعبية بأقل التكاليف « (Ibid، p 104) . قصد تفسير أكثر لهذا التطور ، انظر فقرة « نهاية الانتجاع « بالفصل الثاني .

138 - De l' Euphrate1، p. 190.

139 - Magh. hist. et soc. p. 93.

يبنى بيرك نمطا مثاليا خاصا بهذه الوظيفة . فالقايد يتميز بإعمال مناهج الحيلة ؛ فهو يعمل على إلغاء الخصم بأقل النفقات . إنه يخدع أولئك الذين يوظفونه كما أولئك الذين يوظفهم . إن حذره كبير جدا . إنه رجل دبلوماسي كما أنه رجل الحرب . في حالة سكساوة ، فإن ببلوغه ثمانين عاما يكون قد فتح التسمية الدالة «السكسيوي» ،إلا أن بعدها ينكمش في عالمه الصوفي وتدفعه عواقب الإحساسات القوية إلى الصلاة ، بالضبط كما يدفعه توسعه الذي في غير محله إلى الانفكاك عن وسطه ، فيتظاهر بالبلاهة في حين أنه يعمل على جذب اهتمام أصحاب الوقت والعمل بكل ما في استطاعته لمحاربة كل ما يمتح من الأزمنة الحديثة ، قبل أن يأتي الاستعمار ويحشره بدوره في فضاءات أضيق مثل الفخذ أو الدوار (انظر الفصل التاسع « les derniers chefs Seksawa »من De l'Euphrate 1 من ص 190 إلى ص 199) . ويعتبر بيرك أن موحا أوحمو الزياني يندرج ضمن هذه الخانة ؛ فهذا « الطاغية لا أحد يستطيع أن يحرث بدون أن يخدم مجانا على أراضيه الفلاحية التي تقوم مقام الذمة الجماعية وذلك في إطار التويزة» (Le Magh. ent. 2 guer. P. 119) . إلا أن أحمد بناني (مقالته : كاتبان : بيرك ولوتورنو» ، مجلة البينة ، العدد 4 ، غشت 1962 ، الرباط ، ص 21) يرفض أن يتم إدراج هذا المقاوم الوطني ضمن نماذج القياد كما يفعل بيرك ، إلا أن بيرك قد يكون لا يقترف ذنبا إذ يفعل هذا ، إذ ليس هناك ما يمنع مطابقة الزياني لهذا النموذج مع أنه مقاوم وطني ثبتت حقا مواجهته للدخيل .

يذهبوا إلى حد التوسع في المغرب بأكمله . فمن جهة أولى ، فإن « فضاءهم صغير . إنه لا علاقة له بذلك الذي كان يتحرك فيه آبائهم في زمن «الملوك صانعي المعجزات «[140] . ومن جهة ثانية ، فإن اشتغالهم الوظيفي مرتبط إلى حد كبير باشتغال الخصوم ، بمعنى أنه ، فيما يخص سكساوة ، فهو يعكس دسائس القائد الكبير المتوكي»[141] . إلا أن هذا لم يمنع بعضهم من قبيل القائد أومليد «الوحيد الذي كان يشتغل ، إذا أمكننا القول ، على المستوى الدولي ، الأمر الذي لم تفعله سكساوة منذ عدة قرون»[142] . إلا أن هذا التوسع لم يعد في محله بالنظر إلى الأزمة التي يقحمها في توازن هذه القوة تدخل فرنسا ، والذي أجبر الأمغار على التوافق معها[143] .

ومن جهة ثالثة ، فإنه بعد الاستقلال ستظهر» البنيات الجماعية الجديدة والناتجة عن التراتب الاجتماعي أو حتى عن صراع الطبقات أكثر مما تنتج عن التوازنات القديمة التي يؤطرها الفضاء البدوي وستقدم بديلا لصعود الأفراد . إن طورا جديدا قد انفتح»[144] ، وبشكل أقلق القايد وأبان عن فاعليته . فبيرك يرصد أنه «حيث لم يتمكن

140 - يتحدث بيرك هنا عن زمن آخر كان فيه الملوك الأمازيغيون يبسطون سيطرتهم على قطاعات واسعة من الجنوب المغربي .فالسلطان عبد الله مثلا يظهر» كوجه مركزي قفي القرن الرابع عشر في هذه الناحية من المغرب . إننا نراه يتحرك من مراكش حيث طمع مرة في غنائهما إلى سوس الأقصى ، ومن انتفاضات الأطلس إلى المؤامرة الأندلسية» (De l'Euphrate 1 ، p 84) .

141 - De l'Euphrate 1، p. 191.
142 - Ibid، p 196.
143 - Ibid، p 196.
144 - Ibid، p. 199.

القواد من قتل الديمقراطية الأمازيغية ، فإن الجماعة تقوم بتسيير ومراقبة جيدتين للشؤون وتترك حظا قليلا للتعسف وتسير مؤهلاتها باقتصاد»[145] . إلا أن وظيفة القايد استمرت على الأقل اسميا حتى بعد استقلال المغرب الذي احتفظ بمصطلح القايد بل وأضاف» القياد الممتازين»[146] .

المبحث الثالث: الدولة في المغرب: الأبعاد والحدود

في الصفحات السابقة رأينا كيف أن بيرك كان يجهد نفسه ليقنع القارئ أن السلطة التي كانت تتجه نحو المركزة بالمغرب تستوحي حقا من نموذج الدولة بمفهومها الحديث . فقد لاحظ أن الجهاز الذي أسسه السعديون يعكس على طريقته حركة من هذا النوع تشاهد على الضفة الأخرى من المتوسط .إن الدلائيين استطاعوا أن يشكلوا دولة مشروعة شاهدة على الخلق والغنى ، ووفرت على المغرب الكثير من القلاقل الخطيرة في فترة عصيبة . إلا أن التطور سيبرز أكثر مع صعود العلويين ، وخاصة مع مولاي إسماعيل ، بفضل المسافة التي وضعها بين الجهاز المشرف على إدارة البلاد وبين بقية العوامل المنافسة له أو عموم الناس .

إن النموذج الذي يعتمده بيرك في قياس تطور الدولة في المغرب يظل طبعا هو المسار الذي سلكته الدولة في أوربا . إن الدفع بالمقارنة

145 - Le Magh. ent 2 geur، p. 58
146 - Ibid، p. 131.

إلى مستويات عالية تكشف لبيرك أيضا حدود الدولة التي أقامتها الأسر الحاكمة المتوالية على أرض المغرب . صحيح أن هدف بيرك كان» نبيلا» بالأساس إذ كان يرغب في القول أن الدولة ليست حكرا على أوربا ، وأن هذه المنطقة من العالم التي هي المغرب عرفت» شيئا ما قد يشبه الدولة أو هو الدولة» ، غير أن اعتماد بيرك أوروبا معيارا للقياس جعلته يصطدم- رغما عن نيته النبيلة تلك- بحدود الدولة المغربية إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر . إن الأهم إذن بالنسبة لبيرك هو أن التطور هو تطور جهاز يسميه « الدولة « ، وإن كان هذا الجهاز لم يصل مستوى الاكتمال الذي بلغه في مكان آخر . هل تدفعنا هذه الحدود إلى مراجعة ادعاءات بيرك بوجود الدولة في المغرب؟ لنكتشف بالأحرى مقارناته . وكم هي عزيزة هذه المقارنة عند بيرك!

I- دولة الزاوية

نرصد مع بيرك تقييمه لهذا النموذج من خلال حالة الدلائيين . يقول عن تجربتهم « إنها مغامرة عجيبة جدا لأنها أوشكت على أن تمد المغرب في القرن السابع عشر بدولة إقليمية نامية ومتركزة حول مركز حياة رعوية وحربية ؛ إنها بمثابة النسخة الفريدة لمجال النفوذ الخاص (pré carré) الشهير عن الملوك الأوربيين»[147] .ورغم أن بيرك يعترف أن الدلائيين لم يسيروا على منوال هؤلاء الملوك إلى النهاية مفوتين بذلك

147 - Uémas p 83.

إقامة دولة وطنية على المغرب بأكمله ، ومقصرين سلطتهم على «ما سيسمى فيما بعد بالمغرب النافع» ، فإنهم ، مع ذلك ، أسهموا وعن تبصر في ذلك مراعين وحدة البلاد .

II- دولة الأسرة الحاكمة

سبقت الإشارة إلى أن بيرك يعتبر أن عنصر الشرف لم يكن حاسما في تمكين كل من السعديين والعلويين في تركيز سلطتهما الفعلية ، إلا أنه مع ذلك فهو يلحظ أن «الشرف في حالة المغرب لعب نفس الدور الذي قامت به البيروقراطية الناشئة والكولبيرتية (colbertisme)[148]•في مكان آخر"[149] ، ممثلا بهذا»غرابة في المشروعية»[150] . إلا أن الدولة التي استعانت به ، وإن لم تعتمد عليه كما رأينا ، لم تستكمل ما قام به ذينك العنصرين في تلك الجهة الأخرى من العالم .

صحيح أن السعديين انتقلوا بالسلطة في المغرب من الديني إلى الدنيوي غير أنه» وعلى العكس كليا من التاريخ الأوربي ، فإن المغرب السعدي لم يعرف ذات العملية التي تحرك الأجزاء صوب الكل ، وخلقت في أوروبا الأمم الحديثة(. . .) إن الوحدة التي كان يبحث عنها في المغرب أو تم تحقيقها فيه هي وحدة مفروضة من فوق»[151] .

148 • - نسبة إلى كولبير (Colbert) المراقب العام للمالية على عهد لويس 14 بفرنسا . وقد عرف عنه الرغبة في تنمية ثروات المملكة الفرنسية من خلال فكرة أنه ينبغي بيع الكثير للأجانب في حين لا يشترى منهم سوى القليل .هكذا ،يتم جلب أكبر قدر ممكن من الذهب والفضة (الميركانتيلية) . فحسبه لا تزيد النقود بدولة ما إلا تناسبيا مع ما تنتزعه من الدول المجاورة . إلا أن ما يميز مذهبه أساسا هو أن ليس هناك شيء أكثر أهمية داخل الدولة من التجارة . إنها هي التي تجعلها مزدهرة .

149 -Ulémas، p. 267

150 -Ibid ، p. 267.

151 - Jacques Berque, Problèmes initiaux de la sociologie

فالمخزن قد يكون فرض نفسه أحيانا كثيرة على مجموع البلاد ، إلا أن هذا لا ينفي استمرار المعارضة القبلية ، وكلما أصيب الجهاز بالوهن . الدليل أن ما أن مات المولى إسماعيل ثارت القبائل ودخلت البلاد في «سيبة» روتينية ، الوضعية التي «كانت السلطة تعمل ضدها أساليب يمكن أن نعدها ارتجالية وفورية»[152] . إلا أن ما يفتقده المخزن بشكل جوهري ليس هو القوة ذات الطبيعة القمعية ، بل القوة في شكلها الاقتصادي . يسجل بيرك عن مخزن المولى إسماعيل :» إن المخزن هو قدرة على التدخل العسكري مفصولة عن الشعب ، مفصولة خاصة من حيث أنها لم تعد ترتكز على أية قوة إثنية ، وإنما على جيش غريب عن البلاد . إنه ، ثانيا ، مراكمة اقتصادية ذات نمط قديم ، والتي لا تزودها المالية الشرعية سوى بذريعة متجاوزة دائما . وباعتباره مركزا لإعادة التوزيع الاقتصادي ، فإن دور المخزن يبقى ضعيفا ، ذلك أنه يكنز .ومن جهة أخرى ، فهو يلجأ بكثرة إلى إعمال السخرة الجسدية (. . .) إنه يختلف في هذا عن الملكيات الأوربية في نفس الفترة (عهد مولاي إسماعيل) والتي ، بالرغم عن كونها من ذات الطمع والشره مثله ، إلا أنها على الأقل كانت تبذر . فقد

---

juridique en Afrique du Nord , in : Studia Islamica , n° 1,1953, Larose ,Paris , p. 139.

152 - Magh. hist. et soc، p 74.

خاصة وأن هذه «التجمعات العصية على الطاعة (القبائل) تدافع عن المتهم داخلها فعلا وحجاجا . فهي تمنع مثوله أمام العدالة الجنائية أو حتى الشرعية ، مما يطرح مشكلا خطيرا جدا : إنه لا يتم ترك رجال السلطة يصلون إلى عين المكان قصد التحقيق . وإذا أمكن لهم ،فهم يواجهون بالصمت أو الصد أو المقاومة المسلحة . هكذا بالضبط كان وضع عدم الخضوع ، ما يسمى في المغرب بالسيبة» (Ibid. p 74) .

كان يقال في فرنسا أن الملكية هي ضريح الأمة ، أما المخزن فهو ليس بالنسبة لها سوى المستودع (أو المخزن الأرضي) الذي لا يشبع»[153] .

III- دولة الإمبراطورية

وما ينطبق على دولة الأسرة الحاكمة عند بيرك ، ينطبق عنده أيضا بالأولى على الشكل السابق عنها في المغرب ، أي الإمبراطورية . ذلك أن هذه «الفضاءات الكبرى(الإمبراطوريتين الموحدية و المرابطية) ما أن تم تشكيلها حتى انحازت إلى موضوعات التنظيم ذي الإيحاء الدكتاتوري الشرقي التقليدي . ففي مراحل الحكم الأولى من كل سلالة تتآلف القوة الشابة والانهيار في أشكال متعارضة . بهذا فإن الإمبراطورية تحرق المراحل ، فالاستقرار هو بالنسبة إليها ينذر بدءا بالانهيار . إنها تتحطم عندئذ» . فهنا يظهر أن تقويم بيرك مزدوج : فهو كما ينصب على البناء الدولتي ، يشير أولا إلى الفكرة الديمقراطية والدولة النابذة للدكتاتورية .

وبإعمال ذات المقارنة وهذه المرة مع مجموع الدول المغاربية ومع مختلف الأشكال السلطوية التي اعتملت داخلها ، يخلص بيرك إلى أن» بالضبط على عكس التاريخ الأوروبي حيث أن البناء السياسي يقوم انطلاقا من عناصر أولية محددة محددة : المجال الملكي أوالفيلا

153 - لنعيد الجملتين الأخيرتين بالفرنسية :

« La Cour, disait - on en France, est le tombeau de la nation. Le Makhzen n'en est que le silo insatiable».

انظر :

. (Ulémas p 268)

الغالورومانية (villa gallo-romaine)أو الدير أو «المدينة الطيبة «(bonne ville) حتى الوصول ، بعد تضخم ناضج وبناء على ضمانات ملموسة ووازنة ، إلى الشكل الوطني ، نجد أن أشكال السلطة المغاربية : الكيانات القبلية والمقاطعات الشخصية والتوسعات الروحية أو السلالية تشتعل وتنطفئ مثل المشاعل . فإشعاعها لم يعمل في عمق . إنه يمتد في وسط يتميز في آن بالتنوع والانتشار والتجزؤ ولكنه من طينة كونية»[154] .

وعليه ، فهل تبقى الدولة في المغرب- مع هذه الحدود كما يرسمها بيرك- «دولة»؟ واضح أن الدولة في المغرب حسبه هي ، مع ذلك ، بمثابة الدولة . الأكثر وضوحا أن كل العملية تتوقف على التعريف الذي نحمله الدولة ؛ وعليه وحده؟

154 - Magh. hist. et soc. p. 32.

الفصل الثاني:
المغرب الكولونيالي في منظور جاك بيرك

يكمل هذا الفصل عرض أفكار جاك بيرك حول الدولة التي أصبحت الآن بين أياد أجنبية . إلا أن هذا السقوط لم يكن ليدوم كثيرا إذ سرعان ما سيسقط الاستعمار الفرنسي ضحية ما زرعه ، ذلك أن الوطنية في نظر بيرك هي جزء مما أفرزه القدوم الغربي إلى المغرب[155] . هذا القدوم الذي رتب أوضاعا اجتماعية واقتصادية ومجالية جديدة جعلت بيرك يقول بأن النظام القديم قد انهار حقا ، أو على الأقل فإن بنيات المجتمع التقليدي قد تزعزعت بشكل عميق .

بناء على هذا ، فإن تركيزنا ضمن هذا الفصل سينصب على قضية التغيير (أو التغير) المتعدد الأبعاد إذ أن "منذ المرحلة ما قبل الكولونيالية إلى الاستعمار ، ومنه إلى المرحلة الحالية ، فإن النظام القديم غير الكثير من مضمونه وأوصافه . فإذا كان يحتفظ بقيمته الرمزية وببعض القيم ، فإنه يتخلى في مجال الوقائع ؛ والحال أن هذه تخرج قيما جديدة وتنتظم في نسق جديد"[156] .

لكن دعونا لا نسبق الأحداث ، ولنرى هذا التغيير في كل نقطة على حدة بدءا بالجانب السياسي(وبالخصوص فيما يتعلق بالوطنية) وانتهاء بالجانب الاقتصادي مرورا بالنواحي الاجتماعية و العقارية والعلاقات بين المدن والبوادي .

155 -عن هذه العلاقة السببية يقول بيرك» إن الطابع المسمى» تمديني» (civilisateur) ينتج عندئذ ليس فقط عن الإنجازات المباشرة ، بل أيضا وبصورة أكبر عن ردود الأفعال المستفزة لدى الأهالي . إن الوطنية هي ، من عدة اعتبارات ، إحدى هذه الردود من الفعل» (Le Magh. ent. 2 guer. p. 369) . وفي موضع آخر يقول « إن إرادة السيطرة الفرنسية هي تعاني ، كما تستفيد ، من النماذج التي جعلتها تنتصر» (Ibid، . p 237) .

156 - Magh hist. et soc<، p. 224 . .

المبحث الأول: الوطنية

«إن التاريخ يعتمل فيها (المغارب) من جراء الإكراه الخارجي .

إن عدم الانسجام يمكن إذن أن يلعب هنا دورا ليس كاشفا فقط ، ولكنه خلاق أيضا . يمكننا القول ، بعبارات هيجلية ، بأن التاريخ يكشف هنا سلبية إيجابية (فاعلة)"[157] .

يبدأ بيرك عرضه بالحديث عن ظهور المطالبة ابتداء من سنة 1920 التي أثناءها كان» مطلب العدالة والمطالبة بالإصلاحات بمثابة تطرف(. . .) غير أن هذا لا ينفي عدم إمكانية من الآن فصاعدا وجود طموحات وطنية . فقد تكلم ليوطي مبكرا عن « طموحات لا يمكن تفاديها» ، عن أمة لابد أن تتحرر»[158] . إلا أن بعد التبلور الأولي لمثل هذه الطموحات ، فقد اقتصرت المطالبة المغربية «وبدون أن تنكر مثالها ، على تطبيق صحيح للحماية»[159] ، كما أنها» لم تطلب مراجعة الالتزامات الدولية للملكية»[160] . إنه في فترة لاحقة حيث ستأخذ المطالبة منحى مغايرا ؛ هذا الانعطاف الذي سيلعب فيه ، حسب بيرك ، كل من الإسلام (وما بعثه من رموز جديدة) ومضاعفات المسألة الأمازيغية دورا هاما وحاسما .

157 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 391.
158 -Ibid ، p. 61.
159 - Ibid ، p. 80.
160 - Ibid ، p. 104.

I- «من الإسلام التقليدي إلى الإسلام إليعقوبي»[161]

يلحظ بيرك أنه في حين يجرؤ مجرد مقاول في البناء على البدء في الدعوة للوطنية ، فإن «الناصريين الذين لهم ، على بعد أمتار قليلة ، زاوية مرؤوسة من قبل الشيخ المبجل سيدي علال البدوي يعترفون بأنهم يحبون فرنسا»[162] . كما أنه عندما «دخل ليوطي وزان تم الترحاب به من قبل الشرفاء . إن الوقت هو بعيد حيث كانت الطوائف الصوفية تهيج الحمية الشعبية ضد السلطة»[163] ، والتي لازال يعتقد أصحابها أنهم» أسياد الساعة» في حين أن» هذه «الساعة» سوف تكون قصيرة . إن الحداثة التي كانت زاحفة قهرت الرجفات الأخيرة للإنسان التمامي . إنها (الحداثة) قامت بعناد بهذا الأمر في معقلها ، وهاهي الآن تقوم بذات التخريب عند الآخرين تحت مظهر التوسع الاستعماري»[164] .

إلا أن هذا الوضع ما كان ليستمر[165] ، ف «الرمز الذي أمنته مختلف مراتب المتصوفة منذ جيلين فيما قبل ، والذي كذلك نازعوه مع تيار الإصلاح الصاعد نحو العام 1925 ، يمر الآن إلى خصومهم وهو كله

161 - هذه العبارة هي ترجمة ل :
. (De l'Islam refuge à l'Islam jacobin» (Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 67
ويعرف معجم Le Robert لفظة «jacobin» في معناها التوسعي بالقول :
« جمهوري يناصر بشراسة توجه الدولة المركزية ، فيقال مثلا : أفكار يعقوبية» .

162 - Ibid ، p. 156.

163 - Ibid ، p. 10.

164 - Ibid ، p. 120.

165 - خاصة بعد نفاذ المهلة التي» كانت فيها المطالبة تبدو كما لو أن ما تنتظره من فرنسا أكثر مما تنتظره من نفسها» (Ibid ، p. 100)) .

مصحوب بقيم زمنية»[166] . هكذا فمحل الإسلام المرابطي ، الذي غطى لفترة طويلة شكلا تقليديا للمقاومة ، يحل في سلوك الجماهير التي تنشط أكثر إسلاما إصلاحيا وحداثيا»[167] .إلا أن بيرك لا يعمم هذه الاستكانة على جميع الطوائف الطرقية ، بل يرى أن الزاوية تحتفظ بحيويتها «عندما لا يعرضها للخطر التحالف مع السلطة»[168] .

II- «معركة الرموز»[169]

يرى بيرك أنه لما تبلورت الوطنية بدأت تنازع المستعمر مجال الرموز[170] الذي لم يكن هناك بالتأكيد ، حسب بيرك ، من إمكانية لإيجاده في غير الإسلام . وبهذه المنافسة الرمزية فإن «الوطنية لا تهجم مباشرة على السيادة الفرنسية ، بل تأخذ الأفكار التقدمية كذريعة .وفضلا عن ذلك ، فهي تلعب على مفاتيح الكلمات (. . .)

166 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 320

يقول بيرك في هذا الإطار بالحرف :

« كما أن المقاومة القبلية أفسحت المجال للمعارضة السياسية ذات النمط الحديث ، فإن الإسلام ، بصفته آخر ملاذ ، أضحى مبادرا وهجوميا . إنه بهذا يؤمن نوعا من العقلانية التي قد نسميها يعقوبية(jacobin) . فمطلبه بالعودة إلى الأصول والصفاء العقائدي يقترن بالانخراط في اللحظة الآنية وبطموحات في محلها نحو توافقات إيجابية»(Ibid ، pp. 70-71) .

167 - Ibid ، p. 104.

168 - Ibid ، p. 69.

169 - أثار بيرك هذه العبارة عند الحديث عن الظهير البربري الذي» يخطئ عبر عدم الدقة في التحليل وعبر الهدف الرجعي(. . .) وفوق كل ذلك ، فهو يشن معركة الرموز (أو العلامات) » (Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 240) التي «يهندسها من الجانب العربي شكيب ارسلان ، رئيس اللجنة السورية الفلسطينية» (Ibid ، p. 240 .)) .

170 - يقحم بيرك في تحليله للمعطيات كثيرا من أدوات السيميولوجيا حيث أننا نجده يعنون فصلا كاملا بـ «صراعات الشيء و الرمز» (أو العلامة) من مؤلف» المغارب فيما بين الحربين» . في هذا الإطار يقول» في الواقع إن تطور الكل الشمال إفريقي يبدو لنا يمكن إرجاعه أكثر فأكثر إلى اختلاف خطين من التقدم ،يترادف إحداهما مع الرمز والآخر مع الشيء . يلزم إذن تعريف العهد الكولونيالي كوسواس من الدلالات»(Ibid ، p. 288) . وارتباطا مع هذا ، فهو يرى في موضع آخر أن» مسألة الأسماء التي تعطيها الجماعة لنفسها و لتفريعاتها و للعائلات وللأفراد هي ذات الأهمية الكبرى»(De l'Euphrate 1، p 278-279) .

فالدين والأدب والشعر كلها تقدم مقابلات غنية للوطنية»[171] وهي بذلك تدشن «افتراقا على مستوى الرموز بين الأشياء التي تتشبث بها أكثر فأكثر حماسة الشبيبة الوطنية والأشياء التي تواصل ترجمة هيمنة الدخيل . إن الفراق تم في إطار تعايش لا يستبعد علاقات إنسانية متعاطفة»[172] .وبعد أن كانت المغارب تسجل تراجعا في إعطاء تسميات للأشياء مقارنة مع الشرق [173] ، فإنه بعد عشرين سنة من نهاية الحرب العالمية الأولى ، يلاحظ بيرك أن» مبادرة مغاربية محضة تنافس المبادرة الغربية من أجل تسمية وملائمة الواقع .من هنا صراع الفرضيات : استمرارية رسمية وتشكيكات اشتراكية أو وطنية . إن السلطة الفرنسية تقاوم في غالب الأحيان بالاعتماد على الأمر الواقع»[174] .

إلا أنه إذا كانت الوطنية قد وظفت أكثر من مرة الذريعة التقدمية في بداية عهدها بالمطالبة حيث» في 1920 لم يكن يخشى أي افتراق بين الوطنية وهذه الاشتراكية التي كان حواريون حماسيون بدأوا في توسيعها بشمال إفريقيا»[175] ، فإنه بعد هذه الفترة يلحظ بيرك أن»

171 - Le Magh. ent. 2 guer ، p 300.
172 - Ibid ، p. 287.
173 - يقول بيرك» إن المغارب لم تقدم على هذا المستوى(إعطاء تسميات للأشياء) ذات المجهود اللغوي كما في الشرق . إنها تمتلئ بأشياء دون اسم وأيضا بأسماء دون أشياء ، أقصد بدون أصالة بالنسبة للمغارب . إن اللغة الفرنسية تتباهى أيضا بميدان السلطة بامتياز : سلطة تعيين الاضطرابات الداخلية . إنه يلزم من الآن فصاعدا ليس فقط التحرك بل الشعور وحتى التمرد حسب اللغة والفكر الفرنسيين . هكذا ، فإن أي مجهود لاستعادة زمام المبادرة سيبحث عن إعادة طبع الأشياء بالعلامات أو الرموز «(Ibid ، p. 82)) .
174 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 83.
175 -Ibid ، p. 13

الاشتراكية لا يمكن أن تنحاز فيما يتعلق باختيار الرموز من أجل الفعل- هل تنحاز للفكرة الوطنية أم تقتصر أطروحتها على تحسين الأوضاع الاجتماعية؟-إلا بناء على تحليلات للوسط والأخلاق، واعتبارات الإمكانيات والإيقاع .والحال أننا نلاحظ اليوم أن الرمز الوطني كان يلزم أن يتفوق، على الأقل مؤقتا، على أي رمز آخر في البلاد المستعمرة آنذاك»[176] .

III- الوطنية المغربية تنحاز للحداثة الغربية

فكما اختار الإسلام النهج الحداثي ،فإن الأنتلجنسيا ، التي لعبت حسب بيرك دورا هاما في بعث وتوسيع الشعور الوطني، «تحمل نفسها المهمة الجريئة في ربط الاتصال بين فرنسا والمغارب»[177]حتى أن» الثقافة الحديثة تعزى بإجماع إلى الإسهام الغربي . إن الشيوخ يقلقون من هذا الأمر، لكن الشباب يجدون في هذا الإقرار وسيلة للتطور ،وعلى كل حال يرون فيه سلاحا»[178] . وهم في هذا يخطون على منوال الأوائل ذوي الأفكار التنويرية (les premiers évolués) الذين تأثروا بثلاثة أشياء : التقليد العقلاني لعرقهم والنقاش السياسي على الطريقة الفرنسية وبداية النقاشات الدولية حول تحرير الشعوب»[179] .

فإذا كان بيرك يرصد أنه» يتم التظاهر بالاعتقاد بأن التحولات في الشرق تدل على صيغة أورثوذوكسية من التقدم وتوفق بين العصر

176 - Ibid ، p. 369.
177 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 424.
178 -Ibid ، p. 64.
179 - Ibid ، p. 63.

الغابر والعصر الحديث «[180] مما يجعل التنازع قائما بين» الثورة التي تأخذ اتجاه أوروبا والثورة التي تأخذ منحى الشرق «[181] ، فإنه يخلص إلى القول بأن» الوطنية تتماهى في كثير من الحالات مع خيار الحداثة التي تظل فرنسية ، رغم الإطلالات على الشرق»[182] . بيد أن بيرك ينتقد أو يخطئ السلوك الرسمي الذي يقوي هذا الاتجاه[183] ، مما يعني أنه ينتصر للتلقائية ، أو بعبارة فيبر لصيغة «دع الوقائع تتكلم»!

IV - الظهير البربري أو" الزريبة الوطنية"[184]

يرى بيرك أن مسألة الظهير البربري أدهشت الأمازيغيين أنفسهم الذين عبروا عن اندهاشهم أن يتم الفصل أمامهم بين عقيدتهم[185] وبين نظامهم في الحياة وحضارتهم . فخصوصيتهم بنظره لا يمكن أن تدعم نزعة انفصالية .أما القول بالرغبة في خلق فئة أمازيغية على المقاس الفرنسي فهو ،حسب بيرك ،لم يكن الهدف منه الانتقال

---

180 - Ibid ، p 399.

Ibid ، p. 378 - 181

182 -Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 311.

183 - يصرح بيرك بهذه المعارضة قائلا :» فكثير من الأبناء ، بتركهم السبحة الأبوية ، يبحثون عن إضافة الانخراط في الآداب واللباقات الفرنسية إلى تعلقهم الشديد بما يأتي من جهة الشرق .لكن السياسة الرسمية هي خاطئة في تمجيد هذا» الاستيعاب»بالضبط كما تخطئ الجامعة في التأكيد على الملامح الجد المعاكسة للتقليدانية والبدائياتية . فكلاهما ينسى الشخص الذي ينازعه هذين الحدين» (Ibid، p 392) .

184 - ترد هذه العبارة (parc national) عدة مرات في كتابات بيرك (مثلا ص 128 من Le Magh ent. 2 guer)

185 - يعتبر بيرك أن هذا الأمر يجسد» خرقا للميثاق الموقع مع السلطان بتخليص الامازيغيين ، مادام العمل كان ممكنا ، من المصير الإسلامي والعربي (Ibid ، p 239) . ومن جهة الأمازيغيين أنفسهم يقول بيرك» إن الرمز الذي يتعلقون به (الشلوح في الجنوب المغربي) لم يكن ليبقى هو ذاته في وقت الاستعمار كما في زمن السيبة . ففي مواجهة المخزن المسلم كانوا يتقابلون عبر التطرف في الالتزام الديني . وفي مواجهة المخزن الفرنسي ، فهم لا يستطيعون فعل ذلك بغير أسلمة الأخلاق « (Ibid ، p. 239) .

إلى ثقافة معلمنة كما يدعى واضعو الظهير ، بل الهدف هو خلق" زريبة أو محمية وطنية (parc national) يحظى فيها الأمازيغيون بالاحترام ، لكن تحت إمرة ضابط مأمور من الكوم (goum)» [186] .

ولبيرك أن يقول» إن الأمر لم يكن يتعلق بالنسبة لواضعي الظهير بتأسيس بربريستان ، وإنما بتقوية محمية أو زريبة»[187] ، وهذا ما سترفضه في نظره فطرة هؤلاء الناس والحركة العامة للأشياء ، فأصبح «كوليج آزرو» مقرا للتعريب ، والمدرسة العسكرية «الدار البيضا» تولت إنشاء إطارات مستقبلية للمغرب المستقل . . .

المبحث الثاني : التغيير الاجتماعي

إن التغيير الاجتماعي مس مجالات متعددة بالمغرب أثناء الفترة الاستعمارية . وقد قدم بيرك عنها معلومات متفاوتة سنركز ضمنها عن التغيير الذي لحق كل من العادات الغذائية واللباس والشهوة الجنسية والتفاعل الاجتماعي من خلال نظرة بيرك لمفهوم الصراع الطبقي بالمغرب .

---

186 -وهذا ما كان يحصل عمليا عندما يشير بيرك إلى أن «القواد الكبار ، وعلى رأسهم الكلاوي ، كانوا هم مدمرو الأصالة الأمازيغية ، والذين كانوا بدورهم يتعرضون لجملة من المضايقات يقوم بها ضباط الشؤون الأهلية»

(Le Magh. ent. 2 guer. p 240 .) . أما عن معنى الكوم ، فإن هذا المصطلح يطلق على زمرة من الأشخاص يتم تجنيدهم من داخل الأهالي قصد القيام بحراسة منطقة معينة خاضعة لاحتلال أجنبي .

187 - Ibid. p. 240.

ولنتذكر أن صاحب هذا الإقرار (جاك بيرك) ، فضلا عن كونه باحثا ، فقد كان يوما ما هو ذاته مراقبا أهليا تابعا لسلطات الحماية التي أرادت تطبيق الظهير المشؤوم ، بمعنى أن المعلومات في هذه القضية هي من عند واحد من أهل الدار .

I-الأكل

يتناول بيرك معظم الخصائص المرتبطة بالأكل بشمال إفريقيا في فقرة بعنوان «الجوع»[188] .يقول في مستهلها" إن احتلال أرض ما يعني أولا الأكل فيها أو أكلها (هي)"[189] . إن هذا سيعني أن الغذاء الجيد والكافي كان حكرا على الأوروبيين من جهة ، أو على الأهالي المحظوظين من مثل القواد الكبار الذين ينتعشون ب»المشوي» من جهة أخرى ، في حين أن»الفقير تظل اللحم بالنسبة له بمثابة مأدبة فاخرة أو نعمة من السماء أو تجربة مثيرة»[190] ، وذلك خاصة وأن بيرك يلحظ أن المجاعات لازالت قائمة بالمغارب خلال هذه الفترة وأن الرخاء الفلاحي في مناطق المغرب يبقى متفاوتا[191] .

دامت هذه المجاعة إلى غاية أن مس التغيير بعض العادات الغذائية وخاصة غلبة القمح الصلب والأنماط الجديدة الناتجة عن ظهور المخابز العصرية والذي» لا يمكن أن يمر دون أن يكشف تباينا عميقا بين المجتمع الأوروبي ومنطقة المغارب»[192] .إلا أن عيب هذا التحول يكمن في اتسامه بانعدام المساواة[193] ،»فالإسهال والتهاب الأمعاء والتيفويد

188 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 331.
189 - Ibid، p 331.
190 -Ibid، p 336.
191 - يلحظ بيرك أن» في المغرب ، عند ما يكون الغرب يشهد ازدهارا ، فإن الحوز يعاني من الجفاف . وعندما يزدهر الحوز ، فإن الرطوبة تغمر الغرب» (Ibid ، p. 335) .
192 - Le Magh ent. 2 guer. ، p 331.
193 - بل إنه قد قلب نماذجا رأسا على عقب . يقول بيرك مثلا عن التغيير الذي لحق شراب المرابط بالجزائر» وأيضا حتى ، سامحني الله ، المرابط النازل من حرمه لا يخشى من استهلاك المشهي ذو الحمرة المشبوهة المسمى» طماطم»»(Ibid ، p146) من السبحة إلى الويسكي عبر التواطؤ؟ مر مصير « رجال الله» هذا !

كانت تبيد الأطفال وتفتك خصوصا بالفقراء في حين أن الأغنياء والموظفين كانوا يقومون برحلات سنوية لمدينة فيشي (Vichy) قصد الاستشفاء»[194] .

إلا أن من أهم ما يعكس التحول الغذائي يظهر بوضوح في آداب الطعام حيث أن» عوض القاعدة السائدة القائمة على الاغتراف من نفس الصحن حيث ينبغي دائما ترك» فائض» من أجل البركة ، أصبحت العائلات البورجوازية تقوم بتوزيع الحصص في الصحون على طاولة مرتفعة . هذا التحول ، الذي ينبغي التأريخ له ، هو ذو أهمية غير منتهية . إن هذا يشكل ثورة في العائلات المسلمة التي مرت من الاشتراك إلى المقايسة ، ومن هذه إلى مجرد إشباع البطن»[195] .كما يبرز التحول الغذائي في المكان الذي يقدم فيه الطعام «فبغض النظر عن المطعم الحقير للعمال والبحارة ، فإن المؤسسة الحديثة «المطاعم العربية» الموجهة للزبائن البورجوازيين تعتبر كذلك مرحلة مهمة . ففي الثلاثينات كان يوجد واحدا منها في الرباط بشارع الكزا» [196] .إلا أنه فيما يتعلق بالأدوات المطبخية فبيرك يرصد أنه «لم يكن هناك إطلاقا من وجود للثلاجات في العشرينات»[197] .

---

194 - Ibid، p 331.
195 - Ibid، p 332.
196 - Le Magh ent. 2guer. ، p 332.
197 - Ibid، p 331
ويشير بيرك إلى أنه لازال ينبغي دراسة» استمرار بعض الوجبات وبعض الآداب أو تحولهما إلى مجاميع جديدة . إننا للأسف لم نصل بعد إلى هذا الحد من الإثنوغرافيا المعمقة» (Ibid ، p 333) .

II- اللباس

بعكس المعطيات عن الأكل أو بالأحرى «الجوع» ، فإن بيرك لا يخصص أي فقرة مماثلة فيما يتعلق باللباس ، بل إن بعض ملامح التحول التي مسته ينبغي تتبعها ضمن أمكنة متفرقة ، خاصة لباس المرأة . هكذا يلحظ بيرك أنه عبر تحرر النساء من «الجلابة»فقد كن يردن ألا يبددن تميزهن عن الرجال «وهذا التحرر (من الجلابة) تصادف مع بداية الوطنية[198](. . .) ويكشف من جديد تميز المرأة عن الرجل ورغبتها في الذهاب أسرع منه في اتجاه الإيمان بقيم الغرب "[199] وخاصة في المدن ذات التواجد الأوربي الكثيف ، ذلك أن" في الرباط ، فإن السيدة المنتمية إلى المجتمع الراقي تحتفظ عند استقبالها للضيوف كما يبرز من سلوكها أو زينتها ، بمظهر متروبولي هو بالكاد أكثر أصالة بقليل من الطبيعة"[200] .غير أنها إذا لم تكن قد وصلت بعد إلى هذا الحد ، وحصل أن كانت في حفلة رقص فإنه"عند الخروج يلزم على النساء إعادة ارتداء حجابهن"[201] .

---

198 - ينتبه بيرك إلى أن تيار الإصلاح على عهد الحماية كان خائفا من الإصلاح الاجتماعي . وهذا ما ينتقده بيرك . فهو يقول عن حالة تونس» إن الجميع يستنكر أفكار الطاهر الحداد بدون التبصر في أنها ينبغي أن تشكل كلا- نقاباتية (syndicalisme) ونسوياتية (féminisme) – مع المطالبة الوطنية « (Ibid ، p 355) ، خاصة وأنه في الوسط التقليداني كان لا يزال الانشغال قائما بشأن بعض التجديدات (التي قد نعدها اليوم بديهية!) من قبيل" تجسيد الإنسان في الصور الفوتوغرافية والاحتجاج على بث القرآن الكريم عبر المذياع " (Ibid، p354) .

199 - Ibid، p 89.

200 - Le Mragh ent. 2 guer. ، p 353.

201 - Ibid، p 354.

III- الجنس

يخصص بيرك فقرة كاملة[202] تحمل نفس العنوان ملاحظا أن المغربي يعتز كثيرا بفحولته ويقدم نفسه على أنه رجل الغريزة المفرطة (homo eroticus) . ولذلك ، فعند قدوم المستعمر» فقد عبر المستعمَر بوضوح أنه لن يتنازل في هذه المسألة . فامرأته هي الملجأ الأخير لاستقلاله ، إذن لبقائه . والواقع أن هذه المرأة هي جميلة حسب الذوق المتوسطي ووفقا للمعايير الشرقية»[203] .

إن تلك الخاصية ستجعل المغربي يئن ويرزح في ظل الوضع الجديد ، خاصة بعد انتشار ظاهرة الاستحمام المختلط في الشواطئ التي يكشف فيها النساء ملء أجسادهن[204] . لقد وصل الحد إلى انتشار اللواط الذي «يبدو هو ذاته مظهرا من مظاهر المغالاة في الذكورة»[205] .إن مثل هذه المشاكل طرحت على السلطات ضرورة الاستجابة لحلها . هكذا ظهرت أحياء ينشط ضمنها المومسات [206]مثل حي «بوسبير» بالدار البيضاء [207].إلا أن هذا لم يطمس المشكل نهائيا إذ ظهرت

202 - Ibid، p 338.
203 - Ibid، p 339.
204 - ذلك أن بالنسبة للمغربي ، فإن « رؤية بعضا من النساء في هذه الأوقات الحارة حيث يبدو أن الأرض الإفريقية تصيح نزوا (rut) كونيا ، تغدو إحساسا باللذة وعذابا في ذات الوقت . لقد حصل لشخص ، وهو ملفوف في برنسه ، أن يغادر وبسرعة المائدة الرسمية لأنه لا يستطيع رؤية جليسة وهي مكشوفة الرقبة والكتفين (. en décolleté) « (Le Magh. ent. 2 guer. ، p 342) .
205 - Ibid، p 339
206 - إلا أن العاهرة ، يدقق بيرك» هي مواطنة ، أو على الأقل تكره الأجانب . إنها ليس فقط ترفض الخضوع لبعض الحركات المستوردة ، بل يمكن أيضا أن ترفض الأجنبي» (Ibid ، p 340) .وارتباطا مع هذا الموضوع الوطني ، فمن جهة المغاربي ، فإن» فرنسا ذاتها ، ومهما كانت مزودة بقوى جبارة وذات الطبيعة القمعية ، تبدو له كأمرأة إلى الحد الذي ينوي فيه ، وهو المغزى ، أن يغزيها «(Ibid ، p 343) .
207 - الذي يعتبره بيرك ، من جهة أخرى ، بمثابة « نجاح معماري ، وأول بل ولزمن طويل ، أوحد مشروع

الأمراض الجنسية مثل الزهري . . .

IV- التعليم

يتتبع بيرك التغير الذي لحق هذا المجال من خلال جامعة القرويين بفاس . فبعد أن كان الجامع الكبير مركزا للحاضرة لقرون طوال وخاصة كممثل وحيد للتعليم العالي إن صح القول ،فإن» هيبته الثقافية تمر الآن إلى الجامعة العصرية » [208].

ورغم أن القرويين خضعت لعملية تحديث كبيرة حيث تم "تنظيم الأسلاك : ابتدائي وثانوي وعالي وتغطي في مجملها 12سنة ، وتم تثبيت الامتحانات والبرامج والكتب المدرسية والمواد المحددة وجميع هذه الأشياء التي لم تكن معروفة"[209] كما تم تخصيص رواتب منتظمة للمعلمين ، فإنه مع ذلك يختم بيرك بقوله" مؤسف هو مصير هذه الجوامع القديمة! إن مظاهرها العتيقة تعرضها للنقد أما الحداثة فهي تشوهها ، فهي تتعرض للإهانة والسخرية بصفتها مركزا للتعليم وهي بذلك تفقد حتى مبادرات المظاهر التي تحتضنها"[210] .

إن هذا الإهمال لهذا النوع التعليمي من قبل الحماية لن يتأثر فقط بإنشاء مراكز تعليمية جديدة في مناطق قبلية بعيدة عن فاس مثل

سكني أهلي!"
(Ibid ، p. 340) كسخرية منه تجاه مدى تخلف سلطات الحماية في توفير سكن لائق للمجتثين القرويين .

208 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 221.
209 - Ibid. p 192.
210 - Ibid. p 192.

"كوليج آزرو" والمدرسة العسكرية "الدار البيضا" ، بل أيضا داخل فاس نفسها بإنشاء ثانوية مولاي إدريس التي يشرف عليها ليوطي بنفسه بغيرة كبيرة وتبدو" كمركز للتحديث ومؤدية لهذا الدور إلى أبعد حد"[211] . هذا وإذا كان بورجوازيو فاس لا يلقون أنفسهم غضاضة في تعلم دروس الفرنسية بالمساء ، فإنهم مع ذلك يحتجون على افتتاح مدرسة خاصة بالبنيات . إن الإيديولوجية الكمالية[212] تثير استنكارا رهيبا[213]" .

٧- الطبقية

أشرنا سابقا أن بيرك يعتبر أن النموذج المديني التقليدي ينضبط حسب نظام ثلاثي الأطراف : التاجر والصانع التقليدي والعالم . كما أنه في الإسلام التقليدي إلى غاية الفترة التي دخل فيها الاستعمار عنده «كان لا يتعلق الأمر بتراتب اقتصادي بقدر ما يتعلق بنمذجة ذات حدين : مدينة / قرية .إن النموذج القروي كان يتفرع إلى ملاك أراضي المسمون اليوم تلقائيا بالإقطاعيين ، وإلى فلاحين ، مزارعين ذوي طابع هش هم بدورهم يتميزون بشكل ملحوظ عن العمال بدون أرض»[214]. إلا أن» التصنيف القديم انهار تقريبا في كل مكان ، لكن

211 - Ibid، p 195.

212 - نسبة إلى كمال أتاتورك بتركيا صاحب التوجه العلماني المعروف .

213 - Ibid، pp. 180-181.

214 - De l'Euphrate 2، p. 607.

ليس بدون أن يترك بقايا »[215].

1- الصراع الطبقي كتفسير

يقول بيرك عن رؤيته لمدى انطباق مقولة الصراع الطبقي في البلاد العربية" إنه لا يكفي بالنسبة للباحث أن تكون فكرة ما حيوية ،أو حتى مضبوطة .إنها يلزمها أن تكون صحيحة ، أو على الأقل أن يتمكن التحليل ، عبر اقتراب كاف من الموضوع ، من التعرف على الكيفية المتفاوتة التي بها تتحقق في مختلف الأوساط التاريخية"[216] ، خاصة وأن العالم الصناعي هو الذي يقدم" أغلب الأنماط ومعظم المصطلحات ، ومن هنا وجود نزعة تعميمية ، وأحيانا تافهة ، في تفسير المجتمعات الشرقية ك" نظام طبقي" ، صيغة تعتبر حتى مناقشتها من قبل الكثيرين رجعية . إن فكرة صراع الطبقات ، المحركة من قبل التيارات الراديكالية ، هي مع ذلك مرفوضة من قبل الأنظمة العربية . وهي ليست أقل رفضا من طرف التيارات الدينية باسم تضامن الأمة"[217] .

غير أن بيرك لا ينفي أن خطاطة التحليل الطبقي تنطبق على قدر كبير من الوضعيات ، ذلك أن» تقلبات التاريخ المعاصر المضخمة للتناقض بين الفقراء والأغنياء وبين التابعين والمتبوعين وبين اليسار واليمين ، تجعله مصطفا على مماثلات وأشكال عالمية . إن التصنيع

215 - Ibid. p 608.
216 - Ibid. p 604.
217 - De l'Euphrate 2. p. 606.

التدريجي لهذه المجتمعات (العربية) يعمل في ذات الاتجاه»[218] حتى أن هذه المجتمعات بدورها مثلما هو المجتمع المغربي أصبح لديه نوعا من الوعي الطبقي إذ» الجمهور يميز جيدا الكبار عن الصغار والأغنياء عن الفقراء»[219] .

2- محدودية نظرية الصراع الطبقي في المغرب

غير أن تلك الخطاطة حسب بيرك لها حدودها ، وخاصة في الارتباط بتفسير الموضوعة الوطنية . ذلك أنه في مقابل الرأي القائل أن الاستقلال في المنطقة العربية انبثق من تفجر التناقضات الطبقية ، فإن بيرك يرد بالقول»إن الحماسة المحررة في هذه البلدان (العربية) كانت تهدف إلى إرجاع الهوية الوطنية وتعكس تقلباتها .إن هذه التقلبات كانت تتجاوز طبيعيا مجرد التضرر الاقتصادي . فضد الاغتصاب الكولونيالي ، فإن كلمات النظام المعبئة كانت تصدر عن فاعلين اجتماعيين مختلفين حسب الزمن وحسب المكان ، وأمكن أن يكونوا أيضا رؤساء تقليديين و بورجوازيين كبار وشخصيات ذات نفوذ ديني أو زعماء منتخبين . ما كان يهم ليس مرتبتهم داخل الهرمية الاجتماعية ، وإنما قدرتهم على إثارة الهوية التعيسة»[220] فالوطنية في البلدان العربية» لم تكن مشكلة لعلاج مكمل لعمل الطبقات المقموعة ، وإنما ولعدة اعتبارات محركها»[221] ، أي أنها تعكس تكتل

218 - Ibid، p 608.
219 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 378.
220 - de l'Euphrate 2. p. 611.
221 - Ibid، p 111.

عدة فاعلين مثل الانتلجنسيا التي» ومنذ الحرب العاليمة الثانية ، تظهر للملاحظ المفاجئ وهي تراكم المطالبة الماركسية والانشغال السارتري مع رومانسية طبيعية» ،[222] أو مثل التقنوقراط «المرتبطين ، إلى هذا الحد أو ذاك ، بالمثقفين والبورجوازية والذين ظهروا في وهلة أولى أنهم الوحيدون القادرون على توحيد وحتى إرضاء حاجة ضمنية لكنها غير مشبعة لإعادة البناء»[223] .

وبصفة عامة يخلص بيرك إلى أن «الصراعات التي أمكنها الظهور بين الحركة الوطنية والنقابات آلت لمصلحة الأولى» ،[224]مبينا بذلك محدودية التفسير الطبقي فيما يتعلق بتحليل الوطنية ؛ هذا التفسير الذي يعتبره يتجاهل الوقائع ، والحال أن» تفسيرا يتغاضى عن الاستقراء نادرا ما يفلح في فهم الواقع»[225] .

وعن الاشتراكية ككل ، فإن بيرك يرى أن ليس لها أن تؤمن من مكان داخل البلاد العربية إلا بعد تلبية »الهدف الثلاثي المكون من

222 - de l'Euphrate 2‹ pp. 615614-.
223 - Ibid‹ p. 618
224 - Ibid‹ p. 616
ففي حالة المغرب ومصر ، فإن « جماعات بورجوازية ، وهي مستفيدة من الدعم الشعبي كما مع الوفد المصري و حزب الاستقلال المغربي ،سيستحقون حقيقة الاستقلال (كونهم ساهموا فيه) ، والذي كانت الانتلجنسيا ، من جهة أخرى ، دائما هي مرشده وخميرته» (Ibid‹ p 612) . وفي الحالة المأساوية للجزائر ، فإن «تمرد « مزارعي الجبال»كان أكثر حسما من المطالبة العمالية . إن الازدياد الكبير للبطالة وقلة الشغل ، في المدن كما في البوادي ، هو من جهة أخرى يمثل حقيقة أساسية حتى أن العمل في المصنع أو في المزرعة يبرز مقارنة معها كامتياز « (Ibid ، pp 611-612) . وعلى ذكر العمل ، وعودة إلى موضوع المقارنة بين الشرق والمغارب ، يلحظ بيرك أنه في ترجمة لفظة «travail» فإن المغارب (الخدمة) والشرق الأدنى (العمل) يستعملان مفردتين ذات دلالتين مدققتين بفضول : هنا النشاط وهناك الخدمة «(Ibid‹ p. 607) .
225 - هذه الجملة هي ترجمة ل :
« Une exégèse déductive mord rarement sur la réalité» (Ibid‹ p. 613).

المميز والشامل والأساسي . فعندئذ فقط يمكن لها في هذه البلاد ، كما في بلاد أخرى ، أن تزرع وضعا جديدا من الاعتقاد»[226].

المبحث الثالث: تطور العلاقات بين القرية والمدينة

قبل أن نستعرض تجليات هذا التطور يجب أن نتعرض أولا للتطور داخل كل من القبيلة والمدينة ، بعدها يكون مناسبا استعراض نمطين من تلك التجليات : الضاحية المدينية والفيلاج أو المركز القروي ، بعد أن نكون قد فهمنا كيف انهارت العلاقة بين المدينة والبادية .

I- تضرر البادية

يلاحظ بيرك أن مع زيادة تغلغل الاستعمار تزداد وضعية البادية المغربية سوءا[227] والتي هي أصلا كانت ترزح تحت هيمنة إقطاعيين جعلهم الاستعمار بمثابة «قواد كبار» . إن هذا التضرر هو إذن مزدوج . فالحماية[228] عملت على توسيع مجال المعمر الذي حرم المزارع المغربي من أرضه . هذا الأمر حتم على الأخير إما اللجوء والاستمرار في الانتجاع (transhumance) الذي بدوره تضرر من توسع أراضي

226 - De l'Euphrate 2. p. 621.

227 - للمزيد ، في الارتباط مع هذا التضرر ، ينظر المحور الخامس المعنون ب» التحول الاقتصادي « وخاصة فقرتي» نهاية الانتجاع» و» ازدواجية النشاط الفلاحي « .

228 - التي يقول بيرك عن جهاز المراقبة المدنية بها :» إن المراقبة المدنية تضاعف بأسها لتتدخل . إنها تعتبر ، وتعتبر نفسها ، منؤولة عن تصحيح بيروقراطي ينفيه النظام . فهي محشورة إلى الإدارة المباشرة عبر تعسفات رجالاتها المحليين ، فإنها تسهم مع ذلك في تنقيص معنويات هؤلاء . إن هما للفعالية يجبرها على أن تغتصب أكثر فأكثر من الشيء المغربي ، فتفقد هكذا كل فرصة لتربية الآخرين ، بل لأن تظل ذاتها فعالة لوقت أطول . في نهاية الفترة ، فإن تسييرها هو بدون شك أقل هجومية مما كان في البداية وهو أقل قبولا . إن غياب التكافؤ الاقتصادي يتفاقم والوعي يغدو مرا» (Le Mragh ent. 2 guer. ، p. 156.) .

الاستعمار الفلاحي على حساب الملكية القبلية ، أو التحول إلى بروليتاري ، سواء عند المعمر بالبادية أو عبر الهجرة نحو المدينة .

أما من جهة الإقطاع المحلي والقواد الكبار ، فإذا كان موحا أوحمو يكتفي بـ» حرث أرضه عبر أقنان حقيقيين»[229]. كما أنه يظل تابعا للمخزن رغم غموض هذه التبعية ، فإن القواد الكبار قد وصل نفوذ أحدهم هو الحاج التهامي الكلاوي إلى أن «أصبح يطمح إلى أن يكون في مرتبة نائب الملك . فارتباطاته الغامضة مع مجموعة Epinat للاستغلال المنجمي ، وكذا دعاماته الراديكالية- الاشتراكية التي يتمتع بها في المتروبول سمحت له بأن يسلك أسلوبا معيشيا يجمع بين البذخ والغرق في الديون والسلوكات الشرسة»[230].

II- من المدينة العتيقة إلى المدينة الحديثة

إن «التمدن الشكلي» يعكسه في نظر بيرك نموذج التمدن الإسلامي الذي من إحدى خصائصه تمحوره حول جامع كبير وحمام للتطهر في إطار بنية شعاعية دائرية» ليست منفصلة عن بنية ثيوقراطية»231 .

إن الوافد الجديد سيعمل على إهمال هذا النموذج وسينشئ

229 - Le Mragh ent. 2 guer. ، p 119.
230 -Ibid. pp. 187-188.
231 - Magh hist. et soc. P، 149.
بالإضافة إلى هذه الخاصية يضيق بيرك خاصيتين أخريتين للتمدن الإسلامي التقليدي هما « -2 وجود أحياء ذات طابع عائلي ومستويات اجتماعية متراتبة -3 استمرارية عقارية كبيرة واستقرار شبه سرمدي . إن التغيرات التي يمكن أن تمس العقار أو هيكل المدينة تحكمها قواعد دقيقة ؛ فعلى سبيل المثال وفي فاس حتى أيامنا هذه (1958) لا يمكن بناء أو إعلاء مبنى بدون ترخيص من الجيران : تدقيقات دقيقة تجاه التعسف في القانون» (Ibid ، p 129) .

مدينة حديثة خاصة به[232] بعيدة عن المدينة القديمة ومتضمنة قطاعا صناعيا وتجاريا ، في حين أن» المصالح البلدية في المدينة العتيقة لم تنجح حقيقة في إدخال التقنية أو التقدم في صيانة الشوارع العامة ، مقتصرة على شيء قليل :الماء والكهرباء والطرق والحراسة الليلية»[233]حتى يخلص بيرك للقول»لا يمكن أن نعترف أكثر أن اهتمام النظام ينصب ، تقريبا بشكل حصري ، على المدينة الجديدة حيث عليه أن يواجه هزات جديدة .»[234]

إلا أن الضربة القاضية التي ستتلقاها المدينة العتيقة ممثلة بفاس هي تحول الاهتمام إلى صيغة الوكالة التجارية (Emporium) البحرية ممثلة بالدار البيضاء خاصة وأن» اكتناز فاس ومضاربتها لا يمكن أن تصمد قدام الرأسمالية البنكية[235]. جغرافيا ومنطقيا ، فإن الدار

---

232 - في إطار المقابلة بين النموذجين في التمدين يستعمل بيرك بالإضافة عبارة « القادم من مكان آخر» (d'ailleurs)

و» القادم من عل» (d'en-haut) . يقول « إن الظاهرة المدينية في المغرب يظهر أنها تشكل نمطا مستقلا نسبيا ، مفروضا على البلد وقادما إن أمكن القول من أعلى ، ومن مكان آخر .» من مكان آخر»عندما يتعلق الأمر بالمدن الحديثة ، وليدة التدخل الأوربي والمرتبطة بالنقل البحري أو بتحسين عمق البلاد .» من أعلى» في حالة العواصم الإسلامية ، معاقل الثقافة والإيمان ، والتي تعمل على نشر هالة حياة مترفعة بعيدا في محيطها « . » (Magh. hist. et soc. p، 124) .

233 - Le Mragh. ent 2 guer. ، p< 195.

234 - Ibid، p 195.

235 - يقول بيرك في مقابلة نموذجية بين البورصة والجامع التقليدي» ليس هناك من شيء يمكن أن يبدو متعارضا أكثر من البورصة ضد الجامع التقليدي . ففي البورصة تنشط المضاربة والتعبئة الدائمة ، تعبئة كل شيء وخاصة الشخصية الإنسانية الخاضعة للغرر ، وبذلك تصبح هي ذاتها موضوع مضاربة . في المقابل ، فإن الجامع الموجه للخطبة الأسبوعية هو رمز المدينة العتيقة ، حارس الدائم وبطل الروحي الذي تهجره شيئا فشيئا التطورات المحيطة . والحال أن ، وبشكل دال ، فإن اللعبة القائمة على البورصة كانت تفرض نفسها في الدول المغاربية الثلاث . إن هذه اللعبة هي حقا الحالة- الحد للكمي» . (Magh. hist. et. soc ، pp 145-146) .

البيضاء تحل محلها (. . .) إن الطرق الداخلية تتجه من الآن فصاعدا قبلة المحيط»[236]. إلا أن تحول الوجهة هذه لم يقتصر على فاس وحدها . فكما أن فاس الأنوفة والمعتزة بتاريخها تفرغ من عناصرها النشيطة الذين أضحوا يقيمون بحي ستراسبورغ بالبيضاء ، فإن الشلوح بدورهم غزوا المتروبول الاقتصادي .

III-انهيار العلاقة بين القرية والمدينة

يلحظ بيرك أن كل من» المدينة العتيقة والمدينة الحديثة يعانيان معا من عيب رهيب والذي سيكون بالنسبة لهما على المدى البعيد أكثر خطورة : انفصالهما المشترك عن عمق البلاد القروي»[237]. فكما أن فاس قبل الحماية لم تحسن استغلال «الاستثمار الذي كانت تقيمه حول أسوارها عبر شراء أراضي من القبائل المجاورة (. . .) والذي كان بإمكانه أن يفرز قيمة كبيرة لفائدة الوطنية لو أنه لم يظل في اتجاه واحد . فالبورجوازي ، وهو سمين ورشيق لكنه مستور بين كتف لباسه ومتعب غالبا بل مصاب بالربو ، هو نادرا ما يرتاد مزارعه الريفية»[238]. فإن ذات الوضعية استمرت بعد قدوم الحماية . ففي هذه الفترة بزغ عنصران يقطعان عنها الطريق مع محيطها هما : مكتب

236 -Le Magh. ent. 2. guer. ، p 186.
ويقول بيرك عن أبعاد هذه الازدواجية (مدن الداخل / مدن الساحل)» فهي رغم أنها بسيطة ، فإنها محفوفة بالمخاطر وكانت تميل إلى إقامة ثنائية : مدن ساحلية كبرى/ تجمعات الداخل ، والتي هي أيضا ثنائية الإسلام أوروبا . وهذه الثنائية قد تتحول إلى تعارض حقيقي كلما نزع التطور السياسي والأجتماعي إلى رفع مطالبات العناصر المكبوتة أو المهيمن عليها «(Magh. hist. et soc pp. 125-126 .) .
237 - Magh. hist. et soc. p. 124.
238 - Le Magh. ent. 2. guer. ، p 180.

الشؤون الأهلية الذي يقطعها عن القبيلة ، والاستعمار الفلاحي الذي يتجاوزها في استثمار الأراضي[239].

إن هذا التباعد (الذي يرى بيرك من جهة أخرى أن مسألة تجاوزه لازالت تقوم على عاتق الدولة الوطنية المستقلة) يتساءل بيرك بشأنه» أليست الهجرة القروية الهائلة التي تلاحظ في المغارب في طريقها إلى توحيد المادة الإنسانية لكل من القرية والمدينة؟»[240]؛ هذا يجرنا للحديث عن الضواحي .

IV-الضاحية

يرى بيرك كما أن» التمدن الإسلامي ، المضبوط عبر تمدنه الشكلي ، تم تعويضه من طرف الإنجازات الواضحة للتوسع الاستعماري ، فإن هذه الأخيرة بدورها تم تحديها من قبل تهديد أحياء الصفيح التي تحولت إلى مركز للمهاجرين ومقر لتجمع الجيش البروليتاري»[241]. إلا أن هذا النمط لا يمس فقط المدن الحديثة التي عندما تمتلئ ، تفيض على أطرافها ، بل أيضا هناك» الملاحظة المحزنة أنه حول الجدران الهائلة لفاس بدأت في الظهور أحياء الصفيح في المقالع الرملية التي تشكلت منها المدينة ، وفي الفجوات التي كان المجذومون يعيشون

239 -Ibid. p. 186

ويرى بيرك أن مع الحماية ، فإن « البنية التي كانت تتأرجح في المغارب القديمة بين المدينة المثاقفة والبادية المتأقلمة تعقدت ، تحت الاستعمار ، بجانب ثالث معار من الحضارة الاستعمارية» . (Magh. hist. et. soc. p. 224) . ويضيف» والحال أن هذا الطرف الثالث (المعمر) هو غريب وذو امتياز والأرض التي يمتلكها كثيرون يقدرون أنها انتزعت منهم : تمليك ونزع الملكية يظلان جانبان ، الوجه والقفا ، لذات الظاهرة» (. Le Magh ent. 2 guer.، p 49) .

240 -Magh. hist. et. soc.، p. 123.

241 - Ibid، p 159.

فيها قديما»[242].

يرد بيرك مصدر ظهور هذا النمط السكاني إلى الاجتثاث الذي تعرض له الفلاح الريفي بعد سطو المعمر على أرضه . إن هذا اضطره في أغلب الأحيان للهجرة نحو المدينة والنزول بالأحياء القصديرية . ومن جهة أخرى ، فإن بزوغ الضواحي وتوسعها يعزيه بيرك إلى فشل السلطات في توفير مساكن لائقة لكل قاطني المدينة . إن البلترة (prolétarisation) التي تعرض لها الفلاح بهذا الشكل ، إن كان لها من مزية ، فهي أنها ستجعل لاحقا هذه البروليتاريا حكما للمصير السياسي ، خاصة بعد بروز»شكل جديد من العنف- الانتفاضة الحضرية »[243].

V- المركز القروي (الفيلاج)

آثرنا أن نترك هذه التسمية بلغة بيرك (les villages)[244]* بدون تعريب ، خاصة وأنه يقر»والحال أن أحد هذه التغيرات الخطيرة ،المتلازمة مع المرحلة الاستعمارية ، عززت كثيرا إحدى المصطلحات هو مصطلح الفيلاج ، ومست بشكل نهائي المصطلح الآخر الذي هو مصطلح القبيلة »[245].

242 -Ibid، p. 151.

243 -Le Magh ent. 2 guer. ، p. 343.

244 × - إن الفيلاج يعني بفرنسا تجمعا قرويا يتوفر على عدد هام من التجمعات السكنية والمرافق العمومية التي تخوله حياة مستقلة تجعله في شبه اكتفاء ذاتي ، وهو بهذا يتميز عن مجرد الضيعة الصغيرة (hameau) التي تظل كيانا معزولا وتابعا للفيلاج في تلبية احتياجاتها الأولية (معجم Le Robert).

245 - Ibid. p. 130.

في معرض حديثه عن الفيلاج يلاحظ بيرك أنه تأتى نتيجة تدخل النظام الفرنسي الذي ينشئ بين القمة (المدينة العتيقة والمدينة الحديثة) والقاعدة (القبائل والسهول) محاور وسيطة غير معروفة من قبل . إن الشكل الجديد يرد على القديم كما يتأثر به ، ذلك أن الفيلاجات لا تنضبط فقط وفق الوظيفة الحديثة ، بل أيضا وفق شروط سابقة الإرساء . هكذا ، فإذا كان في سيدي عيسى بالهدنة بالجزائر يقدر بيرك أن هذه المنطقة لا تطلب غير قليل من الدعم الاقتصادي لكي تغدو مستقرة ، فإن الغرب بالمغرب بدوره سيشكل منطقة خصبة لنمو الفيلاجات وحيث توجد مسبقا المداشر . وإذا كانت البنية الفيلاجية في الساحل التونسي تضمن استمرارية للأولياء المتراجعين ووحدة لانقساماتهم الداخلية ، فإن الحيوية الفيلاجية بالمغرب ستتعقد مع الأمل الوطني عندما سيحتضن هذا الأخير الجماهير غير الحضرية . كما أنه في الوقت الذي يريد فيه الفيلاج المغاربي أن يكون على نمط فيلاجات منطقة ميدي (Midi) الفرنسية ، فإنه تهجم عليه من كل مكان مغاربا تريد نفسها من الشرق . كل هذا جعل بيرك يعتبره« الشيء الأكثر حيوية في المغارب القروية والتي يعتزم اجتياح باقي مورفولوجيتها»[246].

246 - Le Magh ent. 2 guer. ، p 172.
وهذا ما ظهر حقا أثناء الاستقلال ، خاصة وأن« إرادة حكومية مقصودة تبحث عن تزويد الفيلاج بعلامات التمدن ؛ والانتخابات التي تجري بالفيلاج تعمل على إشراك طاقات عمق بلاد الداخل» (Magh. hist. et soc. ، p. 123) ، لكن مع ذلك ، فإن هذا الاستغلال لم يذهب إلى الحد (أنظر «إطلالة على الاستقلال مع بيرك») .

المبحث الرابع: التطور العقاري

«إن فكرة الجماعة ، التي هي بمثابة إحياء للحقيقة المغاربية الأكثر قدما ، تبدو لنا مؤشرة على مستقبل واعد ، وينبغي التبريك كون تشريع الاستقلال ، على الأقل ، عمل على خلق هذا المفهوم»[247]

يقدم لنا بيرك صورة عن هذا التطور من خلال حالة منطقة الغرب بشمال المغرب[248]. لكنه من الناحية الزمنية يتوقف رصد هذا التطور إلى حدود منتصف الحماية.[249] يكتشف بيرك في هذه المنطقة طغيان نموذج العزيب الذي ستلحقه تطورات أهلية ، وأخرى من جانب الاستعمار[250] ستتوج بنهاية رابطة العزيب مع ما يجره هذا الأمر من عواقب أبرزها ظهور أشكال بديلة .

---

247 - Magh. hist. et. soc. p. 204.

والمقصود "بتشريع الاستقلال" هنا التشريع الجزائري في حين أن بالمغرب سنرى مع بيرك أن التطور لم يذهب في هذا الاتجاه . وهذا ما يأسف له بيرك .

248 - يقول بيرك عن هذا الاختيار« إن عزيب الغرب يبدو كحالة ممتازة حيث يتواجه بعضا من القوى الكبرى للمجتمع بشمال إفريقيا : السيد الأرضي الغيور على زبائنه و المجموعة القروية الذاهبة نحو غزو التراب . بين الاثنين هناك نظام أصيل من العقود التي يوشك أن يكون تاريخها هو ذاته تاريخ شمال إفريقيا (أوبرباريا) (Berbèrie)» .انظر :

Jacques Berque، Etudes d'histoire rurale maghrébine، les Editions Internationales، Tanger et Fès، 1938، p 38 .

ومن الآن فصاعدا سنرمز له ب Etudes « للاختصار .

249 - ذلك أن المؤلف المعتمد عليه في هذه الفقرة (Etudes) صدر سنة 1938 ، إلا أن مؤلف « المغارب فيما بين الحربين» يمدد الرصد إلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية . أما عن فترة الاستقلال ، فإن بيرك يقدم معطيات وافية عن التطور العقاري نكتشفها في حينها .

250 - هذا مع أن بيرك عن سكان هذه المنطقة يقول : الشاوية الصخرة الممسوسين قليلا من قبل الاستعمار» (Etudes ، p 46) حيث أن« سكان الشاوية المقتطع قليلا من أرضهم ، مع أنهم محاطين بالاستعمار الأوربي ، لازالوا يتمتعون بفضاءات كافية من توفر أراض بورية (friches) واسعة وإمكانية أراض في حالة ركود/ استراحة (jachères) طويلة تعفيهم من كل إيقاع في استعمال الأرض»(De l'Euphrate 1، pp. 280-281) .

I- أشكال قيام العزيب

يرى بيرك أن العزيب في الغرب يتميز بتاريخ طويل باعتباره « بلدا قديما تمت تهدئته من قبل السلاطين ، وحيث تمكنت الفردانية الأرضية من النمو على حساب المجموعة القروية . إن المالك ، سواء كان دينيا أو دنيويا ، كان ينمو حرا بدون أن يجد في القوى المحلية : كراهية الأجانب والعبقرية الجماعية والفوضوية التلقائية والمساواتية (égalitarisme) العربية معارضة جدية حقيقية »[251]. ولذلك فهو » وخاصة الغرب العالي الأقل تشوها ، كان عبارة عن فسيفساء من اللاتيفانديات (latifundia) . فبافتقاره الأكيد للأراضي الجماعية ، فهو يعج بالدومينات الإقطاعية ، العزيبات»[252].

إن العزيب يتطلب إذن في نشأته قوة معينة[253] دينية أو دنيوية ، كافية لقهر روح تلك المساواة والروح الجماعية . فمالك العزيب هو عظيم ، سواء في هذا العالم أو ذاك ؛ فقد يكون شريفا من عائلة مرابطية بوزان أو موظفا مخزنيا .هذا الأخير غالبا ما يكون هو القايد . فقد سبق أن رأينا كيف أن موحا أو حمو كان يتصرف في أرضه عبر أقنان حقيقيين ، فبالأحرى «القواد الكبار» ، في حين أن من جهة

251 - Etudes، pp. 23-24

252 - Ibid، p. 23.

253 - في إطار ضرورة توافر مثل هذه القوة يتساءل بيرك « من إمكانه ، في الواقع ، في زمن المغرب القديم ، تشييد ودعم هذه الاحتكارات الواسعة والهشة غير هذه البيوتات القوية المتملصة من تعسف السلطة والممهورة بقوة نصف روحية ونصف مادية للجذب؟» (Etudes ، p 25) بعدها يجيب « هكذا يتم التفسير أنه يحق فقط لـ» العائلة الكبرى « ، هذا الفاعل الأساسي في التاريخ المغاربي ، الاستفادة من الإشعاع والاستمرارية الضروريتين لتأسيس العريب فهي وحدها يمكنها تحمل توسعها المتواصل» . (Ibid، p. 26)

المرابط الذي يتحول إلى سيد ، فهو يكون» مكسوا بقوة سحرية- دينية ملائمة للحصاد والقطيع ، فالمزارعين بدورهم لم يكن بمقدورهم التغافل عن هذا الأمر»[254].وبالإضافة إلى هذين المالكين للعزيب(القايد والمرابط) ، فإن «عزيب الزوايا[255] والسلطان يلعب ذات الدور في تاريخ المؤسسة».[256]

وفي مقابل عملية ظهور العزيب استنادا على ضرورة توفر قوة أو سلطة معينة ، فإنه»في بعض الحالات قد يكون أصل العزيب هو العطية ، وهذا يقود إلى ملاحظة فظاظة هذه التوسعات الأرضية»[257] ؛أو قد يكون مصدره هو التنازل من قبل المعنيين ذاتهم إذ «ليس من النادر اليوم[258] في الغرب أن قطعة أرض محروثة بسخرة جماعية يتم التنازل عنها لولي من الدوار .إن الإعفاءات الضريبية التي تتمتع بها وزان يمكن أن تعزز أحقية مثل هذه العطايا كما تأثيرها المفيد . فبالموازاة مع الاستظلال برعاية الولي ، وفي الوقت الذي كان فيه يمضي العمل الصالح ويتم الاطمئنان على صلاحية الحصاد ، فقد كان يتم الانفلات من الضريبة»[259].

---

254 - Etudes، p. 27.

255 - يفرق بيرك هنا بين الزوايا والمرابطين» إن المرابطين يختلفون هنا عن الزوايا .إن المرابط يرتبط غالبا يتكاثف مع المجموعة . إنه ينبغي الرجوع إلى هذا التمييز الذي بدونه يبقى (païen) بدين قروي وثني » الخلط قائما
(Ibid، p. 59) .

256 - Ibid، p. 35.

257 - Ibid، p. 27.

258 - يقصد بيرك فترة الحماية إلى غاية 1938 كما أشرنا .

259 - Ibid، p. 27.

إن إدارة الأحباس كان لها أيضا عزيباتها[260]. فهي «كانت تتصرف أيضا تجاه مسيري الأرض (tenanciers) المحليين تقريبا مثل السيد، مع فرق أن في هذه الحالة كان ربما هناك كثير من التسامح وبطريقة أكثر إدرارا للربح، ذلك لأن مؤسسة الأحباس تدافع عن المسيرين بصورة أحسن، وبصفة عامة بتكاليف أقل (...) إن العزيب كان في ذات الوقت مجالا إقطاعيا كبيرا ووقفا تابعا لمؤسسة الأحباس وأرضا جماعية»[261]. إلا أن كما أن هذا الصنف الأخير (أي الأراضي الجماعية) كان يشهد فيه المغرب في فترة الحماية تراجعا مقارنة مع تونس وخاصة مع الجزائر[262]. فإن المغرب سيسجل ذات التراجع فيما يتعلق بأراضي الأوقاف مقارنة مع الجزائر وخاصة مع تونس[263]. هذا مع أن المغرب يعرف أشكالا مختلفة من أراضى الأحباس حيث أن» الثمار تنفصل شيئا فشيئا عن الأصل من أجل أن تشكل حقا خاصا: الكزا أو الجلسة .إن حق السطحية أو الاستعمال يظهر هكذا كتجزيئ حقيقي للملكية . فهنا يظهر تمييزا اجتماعيا ذا فائدة تاريخية قوية بين قانون متعالي وبين المسيرين»[264].

عودة إلى العزيب، وارتباطا من جديد مع مسألة نشأته، فإن

260 - التي يقول عنها بيرك أيضا» إن أراضي الأحباس ، ولعدة اعتبارات، استعملت في شمال إفريقيا قصد تجريد النساء من الإرث» '(Magh hist. et. soc. ، . p 109 .) .

261 - Magh hist. et. soc. ، pp. 105-106.

262 - سنرى ضمن الحديث عن فترة الاستقلال أن هذا التراجع سيتفاقم أفقيا بالمقارنة مع تونس وخاصة مع الجزائر، وعموديا (ما قبل الحماية- حماية - ما بعد الحماية) .

263 - Ibid. p. 215.

264 - Ibid. p. 109.

بيرك يكاد يشير إلى أن المعمر بدوره يسهم في ظهوره ، وخاصة المعمر» المالك للدومين الكبير ، فهو يتهرب من الفلاحة التي تبرر وجوده إلى الإقطاع(Apanage) الذي يدمره . بهذا ، فهو يتضامن مع ذات هذا التوجه «الإقطاعي»(Seigneurie) القروي الذي يؤرق العالم المتوسطي من المحيط الأطلسي إلى إيران . إنه يصبح صاحب إقطاع في الأزمنة الحديثة»[265]. إلا أن» الاستعمار الفرنسي على الأخص هو مميت بالنسبة لهذه الروح القديمة .إن الصيغة القديمة(العزيب) كانت تختفي تحت ضغط صيغ أخرى»[266]. فحتى إذا حصل أن» الإقطاعة القديمة تبدو لازالت حية ضمن الدومين الكبير المحدد والمحفظ على الطريقة الفرنسية ، هنا حيث المالك يتماسك مع الظرف الجديد ، فإن

265 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 262.

266 - Etudes، p 30.
وهذا التحول (اختفاء صيغة وانبثاق أخرى) هو ما يصفه بيرك وبشكل واف . فبعد أن يقدم عرضا مستفيضا لمركز الخماس الذي كان هو من يشغل الأرض في حين أن السيد (maitre) يظل بعيدا عنها إذ أن» العلاقة بين السيد وأرضه تحل بالأحرى عبر العلاقة بين السيد ومسيري أرضه . وهنا نلمس قانونا عميقا لهذا المجتمع» (Ibid. p 28) . وهذا « ليس بدون أهمية ذلك أنه في تاريخ الزراعة الإسلامية ، وخلافا لما حدث في الغرب ، فإن» الإقطاعي «عوض أن يقطن بأرضه ،يظل بالمدن خاصة» (Ibid ، p 25) (كما أنه يقدم الرأي الفقهي في مدى حلية وظيفة أو مركز الخماس ووضعيته القانونية ، بل إن بيرك خصص مجموع النصف الثاني من كتابه « Etudes» لترجمته لمؤلف المعد ني « رفع الالتباس في شركة الخماس»)- بعد هذا إذن ينتقل بيرك إلى الحديث عن العامل الفلاحي الموظف من قبل المعمر ، الوافد الجديد . يقول :» إن الدوار لم يستطع أن يبقى غير عابئ بهذا النمط من المياوم الذي ، وهو غير مهتم بالعائلة و المقدم والقبيلة ، يمر كل الصباحات إلى الضيعة القريبة حاملا معولا على كتفيه . إنه يتم الغيرة ، رغم أنه يستهزئ من هذا ، من سرواله وسترته الأوربية ، الرثان طبعا ، لكنهما نظيفين . إنه يحسد بالأخص فيما يتعلق بامتلاء جسمه(embonpoint) ، ذلك أن العامل الفلاحي يأكل قدرا كافيا يرد به جوعه . إن انتظام الراتب ، الأسبوعي أو نصف الشهري ، يدخل للدوار بانتظام هذا الشيء النادر إلى حد الآن : النقود (. . .) إنه وحده ، عند السوق القادم ، يستطيع أن يجلب معه ، وهو في كامل نشوته ، المرآة والشموع والصابون وخبز السكر : كل هذه الأشياء التي تشكل العلامة البارزة للوقت . لا يمكن أيضا تفويت رؤية تقدمه التقني : إنه لا يتكلم بغير ازدراء عن مناهج الأجداد ، وحتى إذا سمعها وهو شارد ، فإن الفلاح الكبير تراه يستطلع عن ثمن الجرارات» (Ibid، pp 112-113 .) .

الأمر لم يعد يتعلق بالعزيب إلا في النادر[267].

II- مدلولات العزيب

ذلك أن العزيب يحتمل مدلولات خاصة به ، و في مقدمتها» الرابط «الفيودالي» الذي هو ضروري للعزيب ، حتى أنه إذا تحطم ، فإن العزيب ينهار»[268]. إن هذا الرابط يتلمسه بيرك في مفهوم «الصحبة»[269] «التي تسود جميع الاتفاقيات وعلاقات الالتزام في شمال إفريقيا»[270]. بل إن المعمر ذاته سار في نهجها مما يشير إلى»قوة هذه الصحبة التي ، بربطها المعمر بالمياوم والحامي بالمحمي ، تغير جميع علاقاته مع باقي الأهالي ، وإذا أمكن ذلك ، مع الإدارة «[271] والحال أن هذه الصحبة هي «ليست في اتجاه واحد . فهناك خدمات مادية من مسير الأرض وخدمات روحية من السيد . وليس هناك من مجموعة اقتصادية مغاربية لا ترتكز على هذا التقسيم من العمل ، على هذا التقاسم بين المادي والروحي»[272].

---

267 - Etudes ، p 31.

268 - Ibid ، p 30.

269 - لازالت هذه الكلمة ، بذات الشحنة وإن في سياق وزمن مختلفين ، منتشرة في بعض أنحاء الشمال المغربي مثل منطقة كتامة بالحسيمة .

270 - Ibid. p. 26

في حين – يقارن بيرك- أن» أحد الانشغالات الكبرى لـ Bas Emnpire كان هو تخليص الأرض الزراعية من دوار هذه الحماية ، حتى ولو على حساب فظائع قانونية «) (Ibid ، p. 28 .

271 - Ibid ، p. 113.

وأكثر من ذالك ، وإصرارا من بيرك على دفع مستويات المماثلة إلى أبعد حد ، فهو يقول « بدون إعطاء حكم قيمة ، ينبغي الانتباه إلى المصادفة العميقة التي تربط هنا آثار الاستعمار الأوربي مع أحد أشكال التاريخ المغاربي . أو ليست الحماية ذاتها Protectorat)) صحبة (sohba) ينظمها القانون الدولي؟»(Ibid، p 113) .

272 - Etudes ، p. 27.

III-نهاية العزيب وانبعاث النزعة الجماعية

إلا أنه بعد سيطرة أولئك الأسياد ، فإنه «وبفضل غنى العلاقات الإنسانية المميزة للمغارب القروية ، فإن تطورا سيبرز يتماهى شيئا فشيئا مع شكل يجعل المحتلين للأرض بتأكد سلطتهم ضد الإقطاعي ، يذهبون إلى الاستفادة من كل نقاط ضعفه من أجل البدء يوما في هجمة انتقامية للجماعات»[273]. وهذا ما سيتحقق فعلا إذ أن»الانهيار الديني لوزان لم يفته ترتيب نتائجه المنطقية[274]. فبعض العزابة طالبوا بالتحفيظ أو عارضوا تحريات الشرفاء .هؤلاء يميلون الآن إلى تحويل ، وهذا احتياط دال ، جميع عزابهم إلى مكترين إذا قبل هؤلاء الذين غالبا ما يرفضون[275]. الأهم هو أن هذه المقاومة تتخذ شكلا جماعيا .إن السيد خلق الجماعة القروية ، الجماعة»[276]. وعليه ، فإذ يفشل المالك أو السيد في عقد ذلك الاكتراء ، فهو يلجأ إلى»تحفيظ ملكه[277] الذي يزيح منه بلا رحمة الشاغلين إياه ؛ هؤلاء القويين بالحجة التملكية ، يطالبون به ، وهذا أمر معبر ، تحت راية جماعية»[278].فإذا كان فيما قبل

---

273 - Magh. hist. et. soc< p 105.

274 -فبيرك يستقرئ أن» الإشعاع الديني لمركز مرابطي أو زاوية هو في علاقة معاكسة مع غناه المادي ، وخاصة العقاري» (Etudes ، p 31).

275 - يتساءل بيرك» كيف يمكن تفسير هذه الخيانة ؟ ككثير من الخيانات ، فقد كانت على ما يبدو تبادلية . إن ضعف رابطة العزيب هو معزو إلى صعود الفردانية الفلاحية من جانب الشرفاء ، كما هي معزوة إلى الوعي الجماعي من جانب سكان الشاوية» (De l'Euphrate1، p. 278) .

276 - Etudes، p 32.

277 - خاصة وأن بيرك يقول ، وهو لازال موظفا في الحماية» إن استعمارنا الضخم والمثبت لحقوق يدخل رسمية خطيرة في القواعد التقليدية للعوامل المحلية . إنه يجلب فكرة النهائي » (Etudes ، p 33).

278 - Ibid، p. 32.

ليس هناك من شاوي من يخرج المحراث قبل أن يفعل ذلك عضو من الدوار يعرف بمول التسهيل ، وأن سكان الشاوية الصخرة أنفسهم كانوا يسمون في الواقع عزابة وورثة الشريف سيدي عبد الجبار الوزاني وحدود منطقتهم (finage) هي بمثابة العزيب ، فإنه «من الآن فصاعدا فالجماعة والمالك هم يتجابهون ويتبادلون الخوف . إن رابطة العزيب أضحت ميتة»[279]. إلا أن بيرك يحذر من أنه إذا تعمم هذا الأمر ، فإن» نسبة كبيرة من الساكنة ستكون مهزوزة في حياتها اليومية وفي سكناها»[280].

قد يكون القارئ تنبه أن بيرك ، ضمن الاقتباسات السابقة ، استعمل عبارتين هما» الأهم» و» هذا أمر معبر» تعكسان تدخلا من جانبه وتفضحان بالتالي تفضيله لصيغة معينة في المجال الذي نحن بصدده ، أي الشكل الأمثل لتوزيع الملكية أو بعبارة أرسطو العدالة التوزيعية في المجال العقاري . الحال أن هذا الأمر ليس مكتوما من قبل بيرك وهو الذي يقول في شأن الجماعة بأنها «إحياء للحقيقة المغاربية الأكثر قدما»[281] أو» الحقيقة الجوهرية في كل المغارب»[282]. وسنرى إلى أي حد كيف أن تقييم بيرك للتطور في هذا المجال على الإستقلال سيرتبط بهذا التفضيل أو الانحياز وخاصة في ارتباطه بتدخل الدولة و حجم وكيفية هذا التدخل .

279 - Ibid، p. 32.
280 -Ibid، p. 33.
281 - Le Magh. hist. et. soc. p. 204.
282 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 16.

لقد كان غرض بيرك من وصف التحولات المشار إليها هو- وهذه عبارته- رصد «تطور المجتمع القروي المغاربي في احتكاكه مع الاقتصاد الأوربي» ، ذلك أن هذه التحولات تعكس» وليس بدون دقة ، التغيرات الهائلة التي منذ الحماية أتت لتخلق الاضطراب في الحياة القانونية القديمة»[283] ومادام أنه يرى أن هذا التطور يسير في الاتجاه الذي يقدره صحيحا(أي إحياء فكرة الجماعات) ، فهو يحذر بأنه «في ظل الخرافة المتعلقة بالزمن الجميل الفائت ، فإنه ينبغي تعيين نصيب النزوة «الرجعية» ونصيب المرارة العذبة والمثيرة للحنين التي تميز بعض حالات «صدام الثقافات» (Clash of Cultures) ، وفي هذه الحالة خاصة»[284] هذا الصدام الذي قد يصبح مجانيا إذا علمنا أن» تطور الوعي القانوني بمنطقة الغرب في احتكاكه معنا ، يتميز أولا بالأزمة التي مست الأشخاص المعنويين : فبعضهم يموت ، وآخرون هم في طور الانبعاث .وبهذا ، فهو يلتحق بملحمة الفرد العزيزة على الأزمنة الحديثة»[285].

283 - Etudes، p 84.
284 - Ibid، p 84.
كثيرون يتحدثون عن صدام أو صراع الحضارات كأنها موجة هبت مع تسعينيات القرن الماضي ، في حين نلحظ الآن بيرك يستعمل المصطلح في فترة ما بين الحربين(1938) هل يتعلق الأمر بذات الدلالة والسياق؟ نفس الفاعلين؟ بالأولوية ، أيحق مباركة بيرك على هذا السبق؟!
285 - Etudes، p 114.

المبحث الخامس : التحول الاقتصادي

نرى مع بيرك تجليات هذا التحول بالخصوص على مستوى معالم الاقتصاد التقليدي : الانتجاع والفلاحة وأخيرا الصناعة التقليدية .

I- نهاية الانتجاع

يرى بيرك أنه بجانب الثنائية التي أشرنا إليها مرارا في السابق والتي هي مدينة/ قرية ، ينبغي أيضا» الأخذ بعين الاعتبار ثنائية رحل/ مستقرين المرتبطة جزئيا بالثنائية السابقة»[286]. مما يعني أن قسطا ما ، يفترض أنه معتبرا ، كان يقتات بالاعتماد على الرعي المتنقل ، وهذا ما سيدمره الوافد الجديد .

يدقق بيرك أن» الاستعمار الفلاحي يبدو كقدر للأوربي في حين تظهر تربية الأغنام كنصيب يرجع للأهالي»[287].إلا أن جوهر المشكل هو أن كل من ذلك الاستعمار ،علاوة على الزروع و النمط الاستقراري(sédentarité) ، تجاوزوا أكثر من اللازم مجال الراعي . يقول بيرك» فعن حق أوعن خطأ ، فإن نمط العيش القائم على الترحال قد تضرر كثيرا والمعنيين به يشعرون أن كل المنافذ قد سدت أمامهم»[288].

وبالإضافة إلى هذه العوامل ، يضاف النظام البيروقراطي الذي»كان بالنسبة للمنتجعين ، وبأسف ، مميتا[289](. . .) فكثيرة هي

286 - De l'Euphrate 2، p 607.
287 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 147.
288 - Ibid، p 143.
289 - يتأسف بيرك على هذا المصير قائلا» وهكذا نجد أصدقائنا الرعاة بين نارين : توسع إداري من جراء عمل مصلحة المياه و الغابات ، وتوسع استصلاح الأراضي من جراء عمل المعمرين . ويطلب من المنتجعين الاندفاع لجميع الجهات ، وإجمالا دفع نفقات الحماية (Protectorat)» (le Magh. ent. 2 guer)

التقارير الرسمية التي تندد وبالتهاب باستعمار الأراضي المنخفضة من قبل الاحتلال الذي ، سواء كان رسميا أو خاصا ، أخذ حجما كبيرا جدا حتى أنه ضيق إلى حد كبير الأراضي التي كانت تتصرف فيها القبائل . ومن هنا ردود فعل بالجملة»[290].

الواقع أن هذه الردود لم تتأخر ، وإن كان ذلك تدريجيا . فالمطالبة في أول عهدها في نظر بيرك انتقلت «من مقاومة الزعماء وبعض المرابطين إلى التظلم الرعوي ، وبهذا سيكون قد تم قطع بعض المستويات قبل الوصول إلى مستوى المطالبة السياسية»[291]. بل إن بيرك يستفهم استنكاريا» من يدري ألا يكون تقزيم الانتجاع قد ساهم ، عبر طرق خفية وبطيئة ، في الانتفاضات اللاحقة؟»[292]. وخاصة عندما أضحى» مجهود هذه الجمهوريات (الأمازيغية) من أجل رد الغازي يمتح من الشعور الوطني .إنه لا يترجم نفسه في صيغ ثيولوجية ، هذا صحيح ، وفي كل الحالات ليس في شكل الإسلام الأصولي ، لكنه يتعزز عبر التحالف مع المقدس»[293].

p 124 ،) . لكن ، من جهة أخرى ، فإن كان لهذا المسار من مزية ، فإنها تكمن (وهذا في حالة الجزائر) في انهيار النظام القبلي القديم ، وخصوصا في ما قلناه عن محاباة بيرك الواضحة للجماعة ، ذلك أن» القبائل القوية التي ضمتها كلمة عبدالقادر تفجرت إلى دواوير يعمل قيادها بشكل صعب على موازنة أو معادلة التأثير الصاعد لرؤساء الجماعة» (Ibid، p124 .) في حين أن» النظام المغربي يظل وفيا بشكل واضح للقبيلة القديمة . وفي غيره يتم العمل بشكل ممنهج على تفجيرها» (Ibid، p133 .) .

290 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 127.

291 - Ibid، p 127.

292 - Ibid، p128.

293 - Ibid، p 118.

II- ازدواجية النشاط الفلاحي

يشير بيرك إلى أن الاستعمار الزراعي» شكل الغاية التي طالما تباهى بها النظام الفرنسي في إفريقيا الشمالية»[294]. لذلك ، فهو عندما يتحدث عن الفلاحة ، يقصد الفلاحة العصرية حصرا «الفلاحة الشمال إفريقية ، أي فلاحة المعمر»[295] بحيث أن «الإنتاج يؤول إلى المعمر : إن الفلاح هو ، في أحسن الحالات ، مقلده الطيع»[296].

غير أنه إذا كان ذلك الاستعمار يعرف كيف يضبط مصالحه مع تغير الوسط ، فإن هذا الأمر حصل له بفضل المساعدة الدولتية[297]. هذا « لا يقلل فقط ميزاته ، وإنما أيضا وأساسا يقيد قواه في التكيف»[298]. إن انعدام التكيف هذا يجعل «الفلاحة الأوربية تلهث إنها ناقصة في المكان ، وفي التجديد . إن توسع المساحات والتقدم التقني لم يصلا إلى النيل من المخاطر الملتصقة بالظروف التاريخية . إن سبب الفشل يكمن ، إلى حد كبير ، في الصعوبات «الطبيعية» التي لازال على هذه البلدان مواجهتها ما أن تتحرر .إنه يكمن أيضا ، وبشكل جوهري ، في لامعقولية العلاقات الإنسانية»[299]. هكذا يجهد المعمر

294 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 34
295 - Ibid، p 262.
296 - Ibid، p 35.
297 - فبيرك يرقب أنه كلما برزت إجراءات حكومية في هذا الصدد إلا وانتصرت بشكل أكثر فأكثر هكذا فميزانية المغرب ،(Ibid ، p 268) خطورة للقطاع العصري على حساب القطاع التقليدي المحروثة ، الوسيلة (jachéres) المقررة لعام 1926 تخصص اعتمادا من مليون ونصف للأراضي المستريحة «المحترسة من أجل نصرة المعمر على الفلاح الذي يقوم ب» تنويم» أرضه ، وذلك سنة كل سنتين عامة (Ibid، p 47.).
298 - Ibid، p. 46 .
299 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 271

من جديد ، قصد تجاوز الكساد» وخاصة وهو مضروب عبر الأزمة العالمية ، إلى ملائمة أكثر فأكثر للدولة . وفي المغرب ، نجده في نهاية عام 1933 يؤسس لنوع من الميثاق الزراعي ، والذي سيحاول فرضه على الإقامة العامة»[300]

وفي مقابل شراسة هذا الفلاح العصري(المعمر) ، فإن «الشكل الأخلاقي والاجتماعي للفلاح التقليدي يتغير بشكل حقيقي ، يقل أو يكبر حسب الجهات ، لكنه يتم في كل مكان أكثر فأكثر . إن فراغه الداخلي ، هذا الفراغ من إتاحة وتدريب نفسه يمتلئ بطموحات مقايسة ، إذن معارضة لطموحات المجموعة الأوروبية»[301] فهو زيادة على تضرره من» نزع الملكيات الناجمة عن الاغتصاب الأوربي[302] ، ينضاف ذلك الذي يولده التقسيم اللامحدود للتركة . وزيادة على الاستبعاد المباشر أو غير المباشر ، ينضاف التنقيص العام الذي تتعرض

من هذا الفشل يخلص بيرك إلى أن « الفلاحة الأوربية تتحمل تأثير ذات القوانين . فعبر تلاق مثير مع الوقائع التقليدية التي من شأن مهمته الأولية أن تعمل على تطورها ،فإن المعمر ، المالك للدومين الكبير ،يتهرب من الفلاحة التي تبرر وجوده نحو االإقطاع الذي يدمره .بهذا ، فهو يتضامن مع ذات هذا الإقطاع الذي ، من الأطلسي إلى إيران ، يؤرق العالم المتوسطي ، إنه يصبح صاحب إقطاع في الأزمنة الحديثة» (262Ibid، p) كررنا عن قصد هذا المقطع للتأكيد على التحول « الفظيع» لمهمة المعمر المفترضة ، ومن تم فشله حسب بيرك .

300 - Ibid، p. 277.

ويقارن بيرك بين مطالبة المعمرين هذه والمطالبة الإصلاحية الوطنية قائلا» يمكننا مقارنة عنف هذه التعابير (تعابير المعمرين الغاضبين من سياسة الحكومة الفرنسية في المغرب) بلباقة «برنامج الإصلاحات» المغربي الذي صدر بالضبط في تاريخ1934 ! إنه تعارض مدهش بين الوثيقتين" (Ibid p. 278) .وبذلك ، تكون الفلاحة الأوربية» لا تكتفي بجمع التقنية والمال ، أي شكلين للقوة ، بل يبدو أنها تستأثر بعنصر ثالث هو القانون وتطبيقاته» (Ibid p. 50) .

301 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 37.

302 -على أن هذا الجانب حسب بيرك قد تكون له بعض الايجابيات « على سبيل المثال إخضاع شراء الأراضي لرخصة رسمية » (128Ibid، p) .

له جميع فئات الحياة الأهلية»[303] .الأدهى من هذا» ففي حين أنه بالنسبة للفلاح ذي النمط العصري فإن الفلاحة هي مهنة إنتاجية ، فهي بالنسبة للفلاح التقليدي ليست مهنة ولا منهجا في الإنتاج ولكن ببساطة نمط حياة . فهو لا يعمل في الفلاحة ، وإنما هو فلاح . من هنا يحصل أنه إذا سلفت له هذا القرض الذي يصلح للبعض لشراء آليات ، فهو يصلح له فقط لتأبيد نمط حياته والبقاء هو هو . هكذا نراه أحيانا يستلف لتزويج ابنه»[304] فكما رأينا أن البورجوازي الفاسي قد يستلف للحفاظ على مرتبته ، فإن الفلاح» يستلف ليس من أجل القيام بدور مهم ، وإنما في- أغلب الحالات- من أجل أن يعيش ،أو بالضبط حتى لا يموت»[305] .إلا أن ما يحز في نفس بيرك حقيقة ، وهو يرصد تطور سلوكات الفلاح بشمال المغرب ، هو التغير السيكولوجي الذي مس هذا الأخير من بداية الحماية إلى بداية الحرب العالمية الثانية . ففي سنة 1912» كان يخرج من برنسه قطعة رغيف غير مختمرة من قمح أو شعير أو ذرة بيضاء التي يعرضها على عابر السبيل ، وإن كان أوروبيا « هاك الرغيف ، شرك الطعام» . كان

303 - Ibid، p . 49.
304 - Ibid، p. 256.
305 - Le Magh. ent. 2. guer. ، p 257.
زيادة إلى هذه النقيصة التي يعاني منها الفلاح المغاربي مقارنة مع الفلاح العصري يضيف بيرك أخرى :» إن الفلاح المغاربي هو نادرا ما هو فرد ، أو بالأحرى فإذا ما وقع فرديا بالإلتزام ، فهو يذوب في مجموعة واسعة التي هي عائلة أو قبيلة أو جماعة حتى . إن الربا ليس إلا الوجه السلبي والضار لهذه الظاهرة الإيجابية والمثمرة للتضامن .إن الشراكة الفلاحية تكثر في شمال إفريقيا لتجنب المخاطر ، وبالضبط لذات الأسباب ، فإن هذا المجتمع الضعيف والهش هو في حاجة للجوء إلى أشكال من الشراكة أو الاقتراض تفلت من القانون الأرثوذوكسي ، سواء قرآنيا أو نابليونيا ، وهذا بالخصوص وأن الأخلاق الإسلامية تمنع القرض بفائدة . (Ibid ، p 258)

يتم قبول العرض :»بارك الله فيك ، ربي اخلف» .هكذا يعقد التعارف وتتم الصداقة . وقبل أن يتم الافتراق ، فإذا حصل أن حدثته ببعض الأمثال ، فهو يرد»جات ماكرهناش ، ماجاتش ما تكسرناش»[306] . في حين أنه في عام 1940» إذا حصل أن تحدثت معه ، فهو ذو ملحة أو طرافة أقل وذي فضول أقل ولا مبالاة أكثر . أن تحييه بالعربية يرد عليك ببونجور ، وعوض أن يقدم لك خبزا يطلب منك سيجارة أو يسألك كم الساعة»[307] .

III– تضرر الصناعة التقليدية

يرى بيرك أنه زيادة على كساد الجامعة(القرويين) والتجارة ، ينضاف كساد قطاع الصناعة التقليدية . وكما أنه يلاحظ أن «ردود الفعل من قبل الحرف اليدوية ضد التقدم الآلي هي مسألة متواصلة في جميع البلاد والأزمنة»[308] ،فإنه ،في حالة المغرب ، يلحظ تضررا كبيرا للصناعة التقليدية من جراء التحديث الذي شوهها . وتظهر آثار هذه القطيعة في» الفنون المحلية التي يعبث فيها الآن التقليد واجتياح الألوان الكيميائية ووضع أرجل حديدية مضافة إلى الصينية التقليدية وتوظيف أدوات جديدة رخيصة» .[309] وإذا كان قد حصل أن اكتسب الصناع التقليديون بفاس» بعض المظاهر الأولية للتركيز إذ كثيرا ما يحصل أن يجعل الرئيس الكبير للدباغين نفسه نوعا

306 - Le Magh. ent. 2. guer. ، p. 357.
307 - Ibid، p. 358.
308 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 190.
309 - Ibid، p. 191.

من المقاول»[310] ، فإن هذا لا يرفع ذلك التضرر ، وهو ما يعبر عنه بالاحتجاج ضد» استعمال الدباغ التقليدية وضد استعمال جهاز لتشبيك الضفائر وضد توسع استعمال الأدوات الميكانيكية[311] «إن إدخال مثل هذه المستحدثات يجعل الصناعة التقليدية «تفقد طبيعتها وشخصيتها»[312] .

إن خلاصة بيرك في هذا المقال هو أن الصناعة التقليدية في حلتها الجديدة أصبحت في ورطة . إنها أضحت معتمدة على جيب»السائح» الذي مهما كان كريما ، فلن يخلصها من المأزق بعد أن» لم تعد مندمجة ضمن حركة دورانية حية بين الإنتاج الحضري والاستهلاك القروي» .[313] من هنا يخلص بيرك أن «التأميم فقط بإمكانه حماية الصناع التقليديين وجزئيا ، لكن عبر مسخهم وتشويههم»[314] ، أي بالتالي ترتيب ذات الأثر السابق . هكذا ، يرصد بيرك أنه كما اختفى الدلال اختفى» في نفس الوقت الأمين- مقدم الحرفة- من جراء التحديث الاقتصادي للمدينة العتيقة»[315] .

غير أن بيرك لا يرجع هذا المصير لمجرد التحديث الاقتصادي من جهة الغرب ، بل أيضا يحمل العناصر المحلية نصيبا من التدهور

310 - Ibid، p. 189.
311 - Ibid، p . 190.
312 - Ibid، p . 191.
313 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 191.
إذ القرويون هم من كانوا ، وخاصة عند فترات الحصاد السنوي الوفير والجيد ، ينشطون القيسارية بالمدينة .
314 - Ibid، p 409.
315 - Ibid، p . 176

الحاصل ، كما يحصل في انتقاده للبورجوازية الفاسية التي ظلت وفية لـ«الأخلاق التجارية القديمة (أوالبالية)»[316] إذ أنه» ليس المساعدة بل المجاملة هي ما يحتاج إليه الأعيان (بفاس)»[317] . ويخلص بيرك إلى أن « القدامى لم يبق لهم إلا أن يقوموا بصفقة مربحة مع العالم»[318] إلا أن هذه البورجوازية ،مع ذلك ، هي التي أشعلت المطالبة[319] ،والتي ستلتحق بها أفواج أخرى من فئات المجتمع المغربي المتضررة-كما اكتشفنا للتو-من الوضع الجديد ،والتي سقطت في معظمها في وضعية البلترة[320] .

316 - Ibid، p. 179

317 - Le Mragh. ent. 2 guer. ، p 184.

318 - Ibid، p 181.

319 - هذا مع أن بيرك يحذر من أن «الخطأ ليس يسيرا عندما يعزو المحلل الاقتصادي رد الفعل الوطني إلى البطالة أو البؤس ، رغم الترابط الواضح لكل هذه الوقائع فيما بينها ، ومع وقائع أخرى» (Ibid ، p 81) .

320 - فمع أنه قد يكون « من المغالاة القول أن الاقتصاد الأروبي هو السبب المباشر للتغيير ، فإنه ساهم في هذا الأمر . فهاهو العمل ، بتخلصه من العقود وإفراغه من المحتوى العاطفي ،أصبح يقترب أكثر فأثر من نظام الأجر» (Etudes، p. 111) .

الفصل الثالث:
تقييم بيرك للحصيلة الاستعمارية وفترة الاستقلال بالمغرب



استعرض الفصلين السابقين رؤى جاك بيرك لكل من مغرب ما قبل الحماية والمغرب الكولونيالي . وتماشيا مع هذا الخط الزمني ، فإن هذا الفصل يعرض تصورات بيرك حول مغرب الاستقلال . إلا أنه لما كان بيرك يفرد تقييما شاملا للمرحلة الاستعمارية ، فإنه يتضح أنه لابد أن نكتشف أولا تقييمه لمجمل الحصيلة الاستعمارية ، قبل أن نرافقه في تقييمه للاستقلال المغربي .

المبحث الأول: تقييم بيرك لمجمل الحصيلة الاستعمارية: « المحاكمة »[321]

سنكتشف رفقة بيرك أن هذه الحصيلة تتوزع بين الإيجابي والسلبي إلا أن مجمل الحصيلة يميل لأن يكون سلبيا في نظره .

I-الحصيلة الإيجابية وفترة ليوطي

إن بيرك غالبا ما يربط الجانب الإيجابي في الحصيلة مع عهد ليوطي بل وخاصة مع ليوطي ذاته . فليوطي عرف كيف يتعامل مع خصوصية المجتمع المغربي . فعلاوة على انطلاقته »من بداهة واقعية : استحالة تحديد نفوذ المسيطرين محليا»[322] ، فقد كان يعرف كيف يقيم» ملا ذا من أجل شخص الآخر ، ويحترم نوعا من الملجأ ، كما

321 - سنرى معا كيف يحاكم بيرك الاستعمار ؛ نعم أقول يحاكمه لأن هذا هو قصده هو بدون زيادة ولا نقصان . لقد جعل بيرك القسم الثالث بكامله (من أصل 5 أقسام) من مؤلفه « المغارب في فترة ما بين الحربين» بمثابة محكمة تقدم» إنذارات أخيرة» وتعطي مهلة ل « وقف التنفيذ» في محاسبة نقدية للحصيلة الاستعمارية .

322 - Le Magh. ent. 2. guer. ، p 73.

في حرم مولاي إدريس الذي امتنع الماريشال دائما عن دخوله رغم الإغراءات»[323] .وفي الارتباط بالقضية الوطنية ، فقد»تحدث ليوطي مبكرا عن»طموحات لا يمكن تفاديها» ،عن أمة لا بد أن تتحرر»[324] . هذا ، وكما أنه في ميدان الفنون المعمارية ، كانت فلسفته ترتكز على» حماية الموقع من كل شائبة»[325] ، وفي التعليم راعى لجامعة القرويين مهمتها الأصيلة وأشرف بحماسة على ثانوية مولاي إدريس لتثقيف أبناء الأعيان ، فإنه في ميدان الاقتصاد ، فإن»الحماية الفرنسية بالمغرب قامت بتأميم مناجم الفوسفاط . إنها بهذا العمل تكون قد دشنت أسلوبا جديدا في التسيير والتدبير وهو إشراف الدولة المباشر على هذا الأسلوب والذي بقي مستمرا . فتشريعاتها في مجال تدبير الموارد المائية والغابوية كانت تتوجه نحو تنظيمها في إطار نظام الأملاك العامة ، وهذا على عكس ما حصل في فرنسا . إن المغرب آنذاك كان ذو نسق استعماري يحمل ضميرا طيبا . فقد كانت وفرة الرأسمالي فيه تتماشى مع الحيوية التي تتمتع بها الإقامة العامة في إطار وفاقها مع المخزن «[326] . إلا أنه في القطاع الفلاحي ومثل آخرين ، فإن ليوطي «لم يجرؤ على تحدي الرمز المعمر» .[327]وإجمالا ، يرى بيرك أن»فترة ليوطي تظل هي التجربة الأكثر إثارة في بلاد ما وراء البحار التي عرفها

323 - Ibid، p. 68.
324 - Ibid، p. 61.
325 - Ibid، p. 177.
326 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 54.
327 -Ibid، p. 73.

الفرنسيون منذ الحملة على مصر»[328] .

يؤكد بيرك بأن الجانب الإيجابي في إنجازات الحماية يقترن بفترة ليوطي[329] بقوله «إن موت ليوطي الطارئ في هذا الوقت (1935) يكشف بفضل غموض شخصيته نهاية عهد مع ضرورة وجود الموهبة في نفس الوقت »[330] ، بما قد يعني أن السلبيات تفاقمت وتراكمت بعد هذا التاريخ ، وفي نواح شتى .

II- فشل المعمر ومحدودية الاقتصاد الكولونيالي

ففي الفلاحة يرى بيرك أن المعمر لم ينجح في هذا المجال . فقيام المعمر أصلا ينبني على الاغتصاب ، والاغتصاب « في الواقع ، حتى وإن كان شرعيا ، فهو يكشف عن مرحلة رجعية من الوجود الفرنسي (. . .) ذلك أنه بغض النظر عن أي منطق أخلاقي ، فإنه يكشف عن عدم قدرة معينة في العمل وفق منطق الأزمنة الحديثة .إنه يناقض الحداثة التي يتباهى بها النظام الاستعماري . لهذا ، فإن الآراء في جملتها لا تستحسنه » .[331]ومن جهة أخرى ، فإن» الاستعمار الفلاحي الذي تكفله الفعالية فقط ، يبدد مجهودا متواصلا ومسلحا بأدوات في

328 - Ibid. p. 364.

329 - من الايجابيات الأخرى التي نكتشفها مع بيرك ملاحظته أن من يسميهم« الصغار» (les Petits) (ويقصد بهم الموظفين والعمال والتجار الصغار الأوروبيين والذين هم بنظره «بدون روح أو أخلاق استعمارية») «انتهوا بأن يحصلوا لصالح العمال المغاربيين ، الاعتراف بالعمل النقابي أو التسامح تجاهه(. . .) كما أن مظاهراتهم تريد لنفسها أن تكون ديمقراطية ومنحازة للمسلمين . وإنها غالبا ما تفسر كذلك من قبل هؤلاء » (Ibid ، p 371) . كما أنهم ساعدوا الوطنية في نشر أفكارها إذ أن «صحافة » البيض الصغار»(les Petits Blancs) فتحت الطريق للصحافة الوطنية . فبإثارتها لتواريخ ، فقد ساهمت (أي صحافة البيض الصغار) في خلق التاريخ» (Ibid ، p 374) .

330 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 284.

331 - Ibid. p. 38.

الغالب وأحيانا موهوبا ، ذلك لأنه يغتصب الوسط بشكل أكثر فظاظة مما يفعله العامل لديه» .[332] والحال أن هذا الوسط» ينتقم عندئذ من التحدي الذي يتم إنزاله عليه» .[333] فالمعمر بذلك في نظر بيرك لم يبرر وجوده (رأينا سابقا أن الفلاحة هي ما يبرر وجود المعمر) بل كان مآله هو الفشل[334] فأصبح صاحب إقطاع في الأزمنة الحديثة ومفرخا لجيش إضافي من البروليتاريا القروية[335] (على ما أفرزه تضرر الانتجاع) .

هذا وإذا كنا رأينا للتو (مع ليوطي) أن الحماية حققت بعض الإنجازات على مستوى استغلال واكتشاف الثروات المعدنية ، كما أن المغرب عرف تألقا ، مقارنة مع جيرانه ، في الطاقة الكهربائية و»خاصة الطاقة المائية ، وبالتالي قلل من تبعيته الخارجية» ،[336] فإن بيرك يعقب أن»هـذا لا يعني أن الاقتصاد الكولونيالي في المغرب كان يتمتع بالخلق»[337] . وبالإضافة ، فإذا كانت «في المغرب تبنى تجهيزات مينائية وصناعية وفلاحية ، والتي يعجب الأجنبي بخصائصها الخالدة ، فإن هذا ما هو إلا «وجه المغرب» كما كان يقال عندئذ .إنها

332 - Ibid، p. 46.

333 - Ibid، p. 42.

334 - بحكم أن» كل الحقبة الاستعمارية- باستثناء مجهودات مشتتة أو ترددات إصلاحية- ظلت وفية لرمز المزرعة ذات السقف الأحمر . هذا الرمز ، المثمر للبعض لكنه المكلف لفرنسا وإفريقيا ، كان يحمل فشله في نجاحاته ذاتها . فباحتفاظه بالحيوية الفرنسية في الطبقات السطحية للتراب ، فقد ألزمها بأن توسع بشكل أفقي ما كانت تفتقده في العمق» (Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 56) ذلك أن من شأن ذلك التعمق « أن يحرر ، في ذات الوقت الذي سيكشف ، القوى الخطيرة القابعة في « المغارة»» ، المصطلح الذي يستعيره بيرك من كاتب ياسين عن رواية « نجمة» (Ibid p 56) .

335 - إنها «بروليتاريا قروية ليس فقط لأن مصادرها هي تافهة (piètres) ولكن أيضا لأنها تعاني استلابات (dépossessions) فيما يتعلق بالأخلاق» (Ibid ، p 166) .

336 - Ibid p. 32.

337 - Ibid p. 56.

في الواقع مجرد واجهة ،لكن خلفها يتعمق واقع مختلف» .[338] إن هذا النمو الارتجالي واللامتوازن» ترك إحساسا بالنقص في الإنتاج المحلي على المستوى الاقتصادي ، وإن البلد سيعاني من هذا الأمر بقسوة عندما سيصبح مقطوعا عن المتروبول»[339] .

III- «خطورة « التطور المجالي

وفي إطار العلاقات بين البادية والمدينة ، فإذا كان بيرك يرى ، من ناحية إيجابية ، أن التدخل الأوروبي قد جلب الاستعمار الفلاحي (مع المساوئ التي استعرضناها) وتخطيط المدن معقدا «البنية التي كانت تتأرجح في المغارب القديمة بين المدينة المثاقفة والبادية المتأقلمة» ،[340] فإنه بالمقابل عمل على» تفكيك النظام المغاربي التقليدي في شكليه الفلاحي والحضري ، إضافة إلى أنه قضى على النمط الرعوي البدوي في جميع الميادين[341]» .وإذا كان» النظام الكولونيالي ، من جهة أخرى ، عمل أكثر من سابقه على خلق علاقات أكثر فعالية بين العاصمة البحرية و»الفيلاج الاستعماري» بالمرور عبر المدينة الصغيرة الفلاحية»[342] ، فإنه يميل إلى إقامة ثنائية

338 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 91.

إذ أن العمل الكولونيالي» لا يستهدف ولا يحاذي إلا بشكل غير مباشر خيرات البلاد (المغارب) بصفتها هذه . إن الاستغلال بإمكانه أن يكون حكيما عادة ، أو حتى أحيانا حسن الالتفات ،إلا أنه لا يتمحور إلا حول الامتياز الأحادي الجانب . إنه بذلك لا يفكك إلا المجموع الذي يدعي خدمته» (، Ibid . (. pp. 91-92

339 - Ibid p. 321.

340 - Magh. hist et soc. P. 224.

341 - Ibid p. 196.

342 - Ibid p. 125.

مدن ساحلية /تجمعات الداخل ، وهذه الازدواجية هي بسيطة لمكنها محفوفة بالمخاطر(. . .)وهي أيضا ثنائية الإسلام/ أوروبا .وهذه الثنائية قد تقود إلى تعارض حقيقي كلما نزع التطور السياسي والاجتماعي إلى رفع مطالبات العناصر المكبوتة أو المهيمن عليها»[343] . علاوة على هذا ، فإنه في إطار ذات الفضاء الحضري فهناك» تعارض مؤسف يقابل نشاط المدينة الجديدة بكساد المدينة القديمة»[344] ما دام ، كما سبقت الإشارة ، أن اهتمام النظام ينصب بشكل شبه حصري على المدينة الجديدة .

IV- تقدم التعليم وتراجع التعريب

في ميدان التعليم ، يرى بيرك أن هناك تطورا إيجابيا . فبعد أن كان العلم هو» أولا وقبل كل شيء محاضرات وتلاوة وحفظ»[345] ، فإن المغاربي أصبح «يقرأ ،وهذا يشكل ثورة رهيبة» .[346]كما أنه إذا كان» انهيار الجامعتين الدينيتين ، الزيتونة والقرويين ، يحرم الثقافة المغاربية من إحدى أبعادها ، فإن هذا التقهقر ليس بثقافي ، ولا يترجم تأخرا في الإيمان ولا في المواقف الإسلامية»[347](في حين يرى بيرك أن تراجع الكتاب في المغرب على عهد الاستقلال يلزم أن يشغل المسؤولين فيما يتعلق بالتعريب) . الواقع أن» فرنسا ظهرت أيضا أكثر

343 - Magh. hist et soc. pp. 125-126.
344 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 195.
345 - Magh. hist et soc. p 127.
346 - Le Magh. ent. 2، guer. ، p. 415.
347 - De l'Enphrate 2، p 487.

عداوة تجاه نهضة اللغة العربية (. . .) ففي ماي 1930 رفضت إدارة المندوبيات المالية البادرة الهادفة إلى تعليم اللغة العربية في المدرسة الابتدائية»[348] .

V- تهميش المنظور الجماعي

وضمن الحصيلة العقارية ، يرى بيرك أن الحقيقة المغاربية الأكثر قدما (أي الجماعة)» لا تجد في المغارب من تعبير .وينطبق هذا بالخصوص على المغرب حيث القبيلة ، التقليد المخزني أكثر مما هي كيان سوسيولوجي ، لازالت تحظى بالاهتمام «[349]في حين أن» الجماعة ليست كيانا ميتافيزيقيا . إنها تجد دلالتها الحقيقية في كلماتها وأشياءها ومحيطها الزراعي(terroir) .هي كل هذه العناصر في مجموعها وبالتناوب وفق تعاقبات هي جزئيا مضبوطة ، والتي تغلب تارة هذه الفئة وتارة تلك الفئة . ومن يقول ضبط يقول أيضا غياب انضباطات»[350] . لكن أن «يستند المكتب العربي (Bureau Arabe)على المسألة القبلية ، فهنا بالضبط يكمن سر

نجاحاته التي ولت واستهلاكه غير القابل للترميم»[351] .ومع ذلك ، فقد استمرت الحماية في» توظيف القبيلة حينما توظف المعارضة اللجنة ، والكانتون (canton) عندما ترفع المعارضة البلد(pays) ،

348 - Le Magh. ent. 2، guer. ، p 402.
349 - Ibid ، p. 136.
350 - De l'Enphrate 2، p. 581.
351 - Le Magh. ent. 2 ، guer ، p 117.

والعقل الجيد الأناني مقابل توظيف التاريخ»[352] . وهذا التناقض الواضح بين الطرفين يتنافى في نظر بيرك مع ادعاءات الاستعمار المبدئية والنظرية[353] .

VI- حدود الاستعمار الفرنسي وقصور النهجين الاشتراكي والوطني

إذا كان النهج الفرنسي يمثل حسب بيرك» تقدما وبلا شك بالمقارنة مع السلطة المخزنية العتيقة ،ليس فقط لأنه كان يقوم بإدخال الإدارة ، وإنما أيضا لأنه كان يعتزم الوصول إلى القعر الإيكولوجي لنظام معين ، الشيء الذي لم يطمح إليه في بقية بلدان شمال إفريقيا ، فإنه لم يواصل هذه الانطلاقة الجيدة . بذلك ، سيترك نفسه ليتم تجاوزه عبر انبثاق جديد للشخصية الوطنية ، وعبر الطموح إلى عقلانية يعتبر هو ذاته مسؤولا عنها جزئيا . كان ذلك هو خطأ الظهير البربري . لقد كان يراهن على الحاضر ويستبعد المستقبل . لذلك ، لا غرابة إذا كان هذا المستقبل سيحبط آماله»[354] ، بحيث أنه «إذا كانت سياسة ما تعني تنسيق وتجميع الدلالة الصادرة عن مجموع تاريخي في شكل ممارسة جماعية ، فإنه ليس هناك ، في فترة ما بين الحربين ، من سياسة

---

352 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 285.

353 - إنه» تناقض جديد بالنسبة إليه (الاستعمار) فهو في الوقت الذي هو فيه في شمال إفريقيا النشاط الأولي بامتياز ، وفي حين أنه يريد نفسه كذلك فتحا للقواعد ، وفي حين أنه يأخذ نفوذه وجاذبيته ودليله من اندماج مباشر في المشهد الطبيعي ، فإنه يربط مصيره الخاص أكثر بآليات غير مباشرة ، بل تخمينية ، وبامتيازات سطحية ، ومفروضة بقسوة أكثر فأكثر . هذا المؤشر الصارم كان عليه آنذاك أن يشغل» . (Ibid ، p 271)

354 - Ibid، p 129.

فرنسية في شمال إفريقيا ؛ فلا يوجد مطلقا أي مجهود من أجل تنظيم تواصل بناء بين العمل الحكومي والعلاقة الكاملة بين الفرنسيين و المغاربيين»[355] .

هذا ، وإذا كان هناك من يرى أن النهج الاشتراكي من شأنه أن يسعف المغارب في هذه الفترة ، وخاصة بعد ارتقاء الجبهة الشعبية للحكم في فرنسا ، فإن بيرك يدقق القول بأن» الاشتراكية لا يمكن أن تنحاز فيما يتعلق باختيار الرموز من أجل الفعل-الرمز الوطني أم الرمز الاجتماعي-إلا بناء على تحليلات للوسط والإمكانيات التي يتيحها . والحال أننا نلاحظ اليوم أن الرمز الوطني كان يلزم أن يتفوق على أي رمز آخر في البلاد المستعمرة آنذاك على الأقل مؤقتا»[356] .

الحال أن ذلك الرمز ما كان ليخطر على بال الفرنسيين إبان تلك الفترة ، أي في ما بين الحربين حيث» ذروة النظام الاستعماري»[357] ، وبالخصوص ابتداء من سنة 1930 التي» شهدت ثلاثة أحداث متعاصرة تقريبا ، ومتجانسة ، إذا أمكننا القول ، في كل البلاد الثلاث لشمال إفريقيا .ففي الجزائر العاصمة الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر(le Centenaire) ؛ وفي الرباط إصدار الظهير البربري ؛ وفي تونس العاصمة انعقاد المؤتمر القرباني/ المسيحي : كلها تكشف تنافسا جوهريا بين المسيرة الفرنسية ومستقبل الإسلام

355 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 289.
356 - Ibid. p 369.
357 - Ibid. p. 98.

المتوسطي» [358] . ذلك أن «ما نسميه «الوجود» الفرنسي كان يجنح إلى وعي وإلى مشروعية . إن الواقع الكولونيالي ، الذي يكتفي به الإنجليز ، يواصل لدى الفرنسيين تبريره الدائم الغلو ولا يقتصر على استغلال الثروات»[359] . إلا أن القول ببلوغ الذروة هو أمر يرفضه بيرك وبشدة ، إذ أن الذروة تلك هي»ذورة مغلوطة» .[360] فكما أن»مرور مائة سنة من الاحتلال بالجزائر لم تظهر غزوا للعقول ، بل إنها ، لصالح الرؤساء الأهليين الذين هم قبلا من عهد آخر ، عملت على إبعاد ذوي الأفكار التنويرية (Les Evolués) «[361] ، فإنه بالمغرب» أمكن لذوي العقيدة المسلمة الظن أن فرنسا ، بوصولها إلى الذروة ، بدأت في تذكر الحملات الصليبية وتواصل ،عبر الإقناع والقوة ، التفكيك النهائي لكيانهم الأخلاقي» ،[362]بل إن من بين الفرنسيين ذاتهم[363] من سيجرؤ على التأكيد بأن «مصالح الأفراد الفرنسيين لم تكن تتماهى دائما مع مصالح فرنسا .إن هذه اليعقوبية (jacobinisme) المشبوه فيها كانت تقدم صفقة مربحة لرمز وتقليد»[364] .

358 - Ibid، pp. 237-238.

359 - Le Magh. ent. 2 guer. ، pp. 242-243.

360 - ويفصل بيرك هذا الزعم والمغالطة بغزارة في مؤلفه" المغارب فيما بين الحربين" ، بل يخصص له محورا كاملا من ص 235 إلى 253 بذات العنوان ، أي " الذروة المغلوطة" (le Faux Apogée) .

361 - Ibid ، p. 249 .

362 - Ibid, p.242.

إذ قدام أسلمة» القرون- الظلمات» ، كان الواقع الاستعماري الفرنسي يبعث إفريقيا المسيحية (Ibid ، p 243) ، كما أنه « إذا كان (ذلك الواقع) بعيدا عن ما يمكن أن نسميه» حكومة الأشياء» ، فإنه يطمح إلى « حكومة الأرواح» .(Ibid، p. 195) .

363 - يتعلق الأمر ب Pierre Viénot في بداية مارس 1937 على أمواج راديو تونس .

364 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p. 307.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن بيرك يعتبر أن نجاح الاشتراكية لن يتم إلا بعد تحقق شروط يصعب ، إن لم يستحيل ، اجتماعها[365] ، فإن الوطنية بدورها ، في نظر بيرك ، لا تستطيع أن تكشف كل الخبايا العميقة لـ «المغارة» .[366]فالانقسامات التي تشهدها الوطنية المغربية « وهي متأرجحة آنذاك بين زعيمين ، أحدهما ذا توجه غربي ، بل اشتراكي ، والآخر يدعي طوعا أنه لصالح الامتداد الإسلامي والعروبي ، تعود كلها في النهاية إلى تردد المصير المغاربي بين الغرب والشرق . إنها تكشف ، بشكل أكيد وأكثر عن عدم توافق الأشخاص والنزعات . إنها لا تفعل غير أن تبسط في إيديولوجيات مختلفة غموض الكيان الجماعي في هذه الجهة من العالم . هكذا ، فإن الزعماء الأكثر تحركاهم أيضا الأكثر غموضا(. . .) إن النزعة الإصلاحية تتهم التيار المرابطي بالنفاق والرجعية ، وهذا يتهم تلك بعدم التدين ؛ وكلاهما يكشفان تناسبيا حرج الإسلام وهو في اشتباك مع الدهر أو التاريخ[367] . وأن تتصارع العروبة والفرنسة من مجموعة لمجموعة ، وفي داخل كل واحد ، فليس هنا غير تذبذب الكائن الشمال لإفريقي بين

365 -إنظر ص 56 و ص 47 .

366 - كنا أشرنا أنه يستعير المفردة من كاتب ياسين ،ويعني بها على الأرجح أعماق المغارب ، أو بعبارته هو (وهذا بالمناسبة مؤلف ضخم له عن ذات هذه المغارب)» باطن المغارب» (L'intérieur de' (Mghreb .

367 - يرى بيرك أن» السؤال المطروح على الإسلام ، كما على ثقافات كثيرة أخرى غير غربية ، هو معرفة كيف سيمكنه ، نظريا وعمليا ،التوفيق بين أصالته المميزة والنهج الأحادي الذي يفترضه كما يبدو اندفاع العالم نحو حضارة صناعية(De l (Euphrate 2 ، p. 585) . ومن جهة أخرى ، فهو يتساءل « هل تطور الأخلاق والتطور السياسي يضعف ، أو على العكس ، يقوي العامل الديني؟ منذ نهاية القرن (القرن 19) ، فإن ملاحظين مثل Le Chatelier و Castries كانوا يتوصلون إلى خلاصات متعارضة « (Ibid ، p 483) .

نسقين»[368] .

إن الجملة الأخيرة تدل على مدى أبعاد التأثير الفرنسي ، إذ بالرغم من أن «العلاقة الاستعمارية لم تحقق الانسجام لا سلبيا(فهي ليست مسؤولة عن كل شيء) ولا إيجابيا (فهي لا تؤثر في كل ما تمسه)» ،[369] فإن هذا لا ينفي مع ذلك أن» الحياة المغاربية قد مست بشكل أكثر عمقا من أي حياة أخرى . إن التحولات التي أحدثها فيها الاستعمار تهبط أكثر عمقا وتوظف جواهر أكثر تنوعا» .[370]إلا أن «الهيمنة الأوربية لم تفعل غير ترجمة ، وبمعنى ما اغتصاب ، توسع الثورة العلمية والتقنية . والحال أن هذا التوسع كان يروج لعلاقات اجتماعية وأخلاقية تاريخيا هي أكثر تقدما من الحضارات التي كانت محل هجوم . هذا التقدم غير المنازع فيه موه في مرحلة أولى جميع الجوانب المتبقية .إن الطابع المسمى «تمديني/ تحضيري» (civilisateur) ينتج عندئذ ليس فقط عن الإنجازات المباشرة ، بل أيضا وبصورة أكبر عن ردود الأفعال المستفزة لدى الأهالي . إن الوطنية هي ، من عدة اعتبارات ، إحدى ردود الفعل هذه» .[371]

إلا أن بيرك ينبه إلى أنه إذا كانت تلك الهيمنة تكشف «سيطرة ثقافة معينة على أخرى ، حيث الأولى تبعد الثانية في اتجاه ما هو غير

368 - Le Magh. ent. 2 guer.، p 413.

369 - وهذا هو» جوهر النظام الاستعماري ، الكبير بوسائله والشامل بنتائجه ، غير أنه لا يحكم ذاته ولا يتصور نفسه إلا بشكل جزئي . فهو على العكس من الوطنية ، فإن فرضياته ليست في مستوى كتلته» (Ibid، p 98) .

370 - Ibid، p391.

371 - Le Magh. ent. 2 guer.، p. 369.

عقلاني ، أو على أساس أنها مجرد بقايا عن ماض أو في اتجاه ما هو مجرد طارئ أو بعبارة أخرى في اتجاه ما هو كولونيالي « ،[372] فإنه ،مع ذلك ، إياك أن تقع في فخ الخصوصية ، بل إن هذا السقوط قد يكون مجانيا مادام أن» الخصوصية تجعلك تعتقد أنك لا تضاهي أحدا ، في حين أنك إذ تفعل هذا فأنت بالضبط تضاهي كل واحد»[373] .

المبحث الثاني : إطلالة على الاستقلال مع بيرك

إن الحداثة الآن أصبحت مغاربية (. . .) فلا يتوقف الأمر إلا عليها لكي تفرض نفسها على الواقع البيئي والإنساني» .[374]

نرصد في هذه النقطة فترة الاستقلال التي تقل نسبيا المعطيات بشأنها في كتابات بيرك (وهذا ينبغي أن يفهم طبعا في حدود البيبليوغرافيا التي توصلنا إليها ، وبالخصوص التي اعتمدنا عليها) أو أنها مشتتة في مؤلفات مختلفة تحيل على فترات سابقة غير أنها قد تعمد إلى المقارنة مع الاستقلال راصدة حدود التقدم أو التراجع . إن القول بقلة المعلومات عن الاستقلال لا يعني قلة إنتاج بيرك ضمن ذات الفترة ، بل على العكس فهو مع استقلال المغرب حيث سيصبح أستاذا «بكوليج دوفرانس» مدشنا مسارا جديدا حيث سيشغل كرسي» التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر» مما يعني أن اهتمامه

372 - De l'Euphrate 2 pp. 579-580.
373 - Jacques Berque، L'intérieur du Maghreb(XV-XIX siècles) ، Gallimard، 1978، p. 353.
374 - Magh. hist. et. soc. p. 118.

سيمتد إلى مجموع العالم الإسلامي ، وبالخصوص العالم الإسلامي العربي وبالتالي قل التركيز- مع أنه يبقى هائلا وهائلا إلى أبعد حد [375] ، لنقل إذن لم يبق منحصرا- على منطقة المغارب وحدها ، وكان التضرر الأكبر من نصيب المغرب إذ نعرف أنه قضى بالبلاد فترة أطول وحصل على معلومات أوفر . إلا أن بيرك(صديق المغاربة) يعبر من جديد (إذا كان الأمر لازال يحتاج إلى تأكيد)عن وفائه لهم ويصدر كتابا خاصا عن المغرب وحده وعن فترة ما بعد الاستقلال .[376] إنه ضمن هذا المؤلف بالخصوص وضمن الشتات[377] المشار إليه حيث

375 - كما يظهر ، وعلى سبيل المثال ، في صدور مؤلفات مثل :

. (Al - Youssi (1958 -

. (L'intérieur du Magherb (1978-

ومقالات مثل :

- Ça et là dans les débuts du réformisme musulman au Maghreb (1962).

. (Problèmes de la connaissance au temps d'Ibn Khaldoun (1967 -

وغيرها كثير . إلا أن مثل هذا الإنتاج ، رغم صدوره بعد الاستقلال ، فهو كما قد يظهر من مجرد العناوين لا يشمل بشكل خاص المرحلة .

376 - هذا الكتاب هو«» Partons pour le Maroc ، وقد صدرت الطبعة الأولى عام 1977 وهي التي بين أيدينا . وقد ألفه بيرك بالاشتراك مع J. Couleau ورغم أن هذا الكتاب هو ذو صبغة تعريفية بالمغرب بل دعائية له (وهذا ما يشير إليه بيرك ذاته) بمعنى أنه كتب للسياح الراغبين في زيارة البلد ، فإنه لا يخلو من المعلومة المفيدة والملاحظة الدقيقة المعهودتين عن بيرك حتى أننا نستطيع تبين نصيبه في المؤلف . لقد جعله بمثابة لوحة فنية كاشفة عن المغرب وقد صدر في سلسلة (Nous partons pour) . وأكيد أن المشرفين على السلسلة أصابوا كثيرا إذ وقع اختيارهم على بيرك لأداء المهمة فيما يتعلق بالمغرب .

377 - خاصة وأن النسخة التي اعتمدنا عليها من كتاب « المغارب فيما بين الحربين» هي الطبعة الثالثة المزيدة والمنقحة فعلا ، إذ بيرك أضاف الكثير (مع أن هذا ليس بالقدر الذي قد يغير بنظره الرؤية الأصلية التي وجهت الكتاب) ، وخاصة في مقدمة كل قسم ، بل وقسم كامل هو القسم الخامس « المغارب من الأمس إلى الغد » ، بعد أن كانت الطبعة الأولى قد صدرت عام 1962 أثناء المرحلة الأخيرة من حرب الجزائر .

نستقل رفقة بيرك حافلة تقييمه للاستقلال المغربي إلى حدود تتجاوز أحيانا السبعينات ، وحسب المواضيع التي تقترحها هذه المعطيات .

I- محدودية الحداثة المغربية

إنه كما كان المعمر بمثابة المغير للمشهد الطبيعي والآلة المنتجة للبلترة ، فيسهم فعلا بشكل «ملموس» ، وهذا بالرغم عنه ، بنصيبه في انتفاضات الغد ،[378] يرى بيرك أن» الورش الإداري في المغرب ، تحت اسم «الانعاش الوطني» ، اتخذ نوعا من المأسسة ،لكنه أيضا أثار الانتقادات الأكثر التهابا إذ ستغدو عملية البلترة ماسة بكل» القطاع التقليدي» . وإذا تواصل هذا المسار ، سنلحظ الظاهرة التي يلاحظ تفاقمها في كل مكان : انهيار التلقائيات والهويات المحلية .إن ورش تقديم المساعدة هذا يبدو كأنه الطريق الأسوأ» ،[379] بحكم أن» التقدم سيقتصر على إضافة» قطاع حديث» إلى «قطاع تقليدي» .»[380] ومثل هذه الإضافة لا يرتضيها بيرك إذ يقول «لنفكر مثلا في إنجازات ما يمكن أن نسميه في هذه البلدان (العربية) بـ «القطاع العصري» في مقابل» القطاع التقليدي» . إن «الحداثة» أو ما يسمى هكذا تبدو على هذا النحو مفصولة عن الباقي وتضغط على هذا الباقي في اتجاه الماضي . فهي محرومة من احتكاكاتها مع الطبيعة ، ذلك أن هذه الاحتكاكات تم صدها واجتزائها من أصناف مهمة من

378 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 245.
379 - Magh. hist. et. soc. p 201.
380 - Ibid ، p 204.

الكيان الاجتماعي(الدينامية التكنولوجية والاقتصادية بين أمور أخرى) ، فإن الحياة المحلية تتشتت وتزداد فقرا» .[381] غير أنه مقارنة مع» نجاحات الاستعمار التقنية والمالية في الميدان الفلاحي التي لم تكن في صالح غير أقلية دخيلة ، وبالتالي في مصلحة بورجوازية أهلية» ،[382] فإن نجاحات المغرب المستقل»وخاصة على مستوى المنشئات المائية ، ونجاح الشمندر السكري في الغرب ، تعكس الكثافة الهائلة لمشروع ذو مصلحة عامة هو تحسين حوض سبو . هذا الإنجاز الأخير يكشف أن حلا فلاحيا مناسبا ومقبولا من الناحية النفسية قد تم إيجاده لمشاكل عصية :إدخال زراعات معقدة وتنويع العمل بين المبادرة الحرة وبين القطاعات الجماعية والعمل المنسق ليتشكل الكل في مجموعات ومزدرعات»[383] .

يقارن بيرك أنه بخلاف الجزائر التي» انخرطت عبر نمط التسيير الذاتي والإصلاح الجماعي واللجان الجماعية للإصلاح الزراعي في المنظورات التي تنتصر للروح الجماعية»[384] ما دامت أن «فكرة الجماعة التي هي بمثابة إحياء للحقيقة المغاربية الأكثر قدما تبدو لنا واعدة بمستقبل عظيم ، وينبغي التشديد على أن تشريع الاستقلال (بالجزائر)

381 - De l'Euphrate 2. pp. 585-586.
382 - Magh. hist. et. soc. p 202.

وهذه القبضة كانت تتفاقم « بفصل أدخل ضمن الدوائر الداخلية : تفضيل لصالح الأجنبي واحتكار القرض البنكي والتعاضديات وتعارض بين أهمية العمليات المضمنة وبين الفردية الأنانية للمستفيدين منها وتأثيرات تمارس على الدولة وتشلها » (Ibid، p 202) .

383 - Magh. hist et. soc، pp. 204-205.
384 - Le Magh. ent. 2 guer، p 136.

عمل على تبني مثل هذا المنظور الذي يحتمل تحسين الأرض والإدماج في القاعدة» ،[385] فإنه في المغرب ولحد عام 1968» فإن ما يؤسف عليه هو أن مسألة إدماج خلية قاعدية هي المركز القروي (الفيلاج) ، أي بعث الجماعات القديمة ، قد تم إبعادها من المشروع الرسمي . من هنا يظهر خجلا واضحا ومأسوفا عليه ومنذ البداية عندما تم وضع ما تمت تسميت بشكل غير مقبول «بالإصلاح الجماعي» .والحال أنه عبر الحيوية الكاملة للجماعات المحلية بالخصوص حيث كان المغرب يؤكد الوعود التي علقت عليه»[386] . إن هذا الإبعاد قد تم رغم أن» الأعمال التحضيرية الرائعة لمكتب سبو أبانت في قطاع مفصول منذ مدة عن الاستعمار عن استمرارية هائلة لنظام فلاحي : وجود أراضى جماعية على سبيل المثال» .[387]

وفي موضوع ذي صلة ، هو أراضي مؤسسة الأحباس ، ومقارنة هذه المرة مع تونس التي» جعلت الأوقاف تؤول إما لأصحابها أو للدومين العام» ، [388] فإنه «بالمغرب هناك وزارة دولة في الشؤون الإسلامية أبانت عن اتجاه مخالف للاتجاه التونسي»[389] .

II- سيادة التشريع الفرنسي

يلحظ بيرك أن» دور المشرع الكولونيالي ثم المشرع الوطني

---

385 -Magh. his. et soc. p 204.
386 - Magh . hist. et. soc. p 205.
387 - Ibid، p 98.
388 - Magh. hist. et. soc. . p 125
389 - Ibid، p. 215.

لاحقا كان ولازال وسيظل دورا كبيرا» .[390] إلا أنه إذا كانت الفترة الاستعمارية شهدت تنازعا بين القانون العصري والفقه ، فإن»العهد التالي(الاستقلال) سيجعل من مهمته أمر تجاوزها» .[391] ففي حين أن الفقه لا يستمر في التطبيق في غير المادة العقارية والإرث ،[392] فإن القانون الفرنسي أو ذا الطابع الفرنسي يسود مع نوع من الحضور المتعدد . فمن جراء معززاته الاقتصادية والسياسية وقوته المنطقية ، فقد اقتحم الزوايا الأكثر اختفاء .إن استمرارية ضوابطه وممارسته تبدو مكتسبة . إن المشرع الوطني لا يتهجم على هذا الإرث إلا بحذر ، وهذا يظهر تناقضا ذي مغزى مع الحيوية التي عملت بها الدول الثلاث بشمال إفريقيا في مجال القانون العام على رفض كل ما قد يظهرك» بقايا» من الزمن الاستعماري»[393] .

في التراتبية الاجتماعية ، يلحظ بيرك وجود» بورجوازية صغيرة تم تكوينها انطلاقا من ظروف النظام الجديد بفضل نمو الوظيفة العمومية وانتشار التعليم ؛ هذه البورجوازية قد تلعب دورا غامضا يؤول إلى تكتيك يصب في مصلحة القوى الشعبية ، وبهذا يتم إصلاح الطموحات الخطيرة للبورجوازية»[394] التي تشكلت أساسا «عبر العلاقات الغامضة مع الإمبريالية والاستعمار الجديد . فسواء في

390 - Ibid، p. 85
391 - Ibid، p. 117.
392 - إن الفقه في نظر بيرك فشل في فهم الواقع الأرضي الناشئ عن علاقات تقنية جديدة تخرج عن اختصاصه ، مع أنه لازال ينتصر عبر قيم المقاومة في الخلفية الدينية (Ibid، p 117) .
393 - Magh. hist. et soc، pp115-116.
394 - De l'Euphrate 2، p. 611.

القاهرة أوفي فاس أو في دمشق فهي التي قادت في البداية النضال من أجل التحرر» .[395]كما أنه « تقريبا في كل مكان من العالم العربي تتقدم تشريعات الشغل ، رغم أنها تخضع إلى تقلبات الأنظمة التي هي ليست دائما ديمقراطية ، وتظهر على الأقل أن هذا المشكل يشغل السلطة »[396] .

III- مرونة الإسلام ولا جدوى الإيديولوجية

إن بيرك عندما يقارن الاشتراكية بالإسلام يخلص إلى أن» الاشتراكية لا تظهر دائما كخصم للإسلام داخل الضمائر . إن هذا وتلك ، مع ذلك ، يلعبان دورهما بشكل متفاوت في مقاربة كل هو في طريق التشكل»[397] ، بحكم أن بيرك يرى أن» الإسلام يروج لمفهوم قديم للتجارة ينتصر لقواعد المنافسة والتراكم الذي يتم اعتباره كمسألة طبيعية .هذه الليبرالية هي تقليديا يتم تلطيفها عبر أخلاق جماعية أكثر مما هي أخلاق شخصية ، مما سمح للتأويل المعاصر بأن يجر النظام نحو الاشتراكية . سيكون إذن من المقبول الحديث عن اشتراكية إسلامية[398] التي ستجعل استيراد إيديولوجيات أجنبية أمرا بدون جدوى . وسيتم رفض هذه جنبا إلى جنب مع الرأسمالية التي

395 - Ibid، p 605.
396 - De l'Euphrate 2، p 605.
397 - Magh. hist. et. soc. . p 216.
398 - إذ أن الدين» وسواء تحت شكل الإصلاح الكهنوتي أو حسب النطاق المتطرف الذي يعتمد « الإخوان المسلمون ، قام بمجهود عظيم من أجل تكييف وقائع العالم المعاصر ومواجهة التفسير التعميمي للاشتراكية بأصالة إسلامية « (De l'Euphrate 2، p 609).

اختبرت هذه الشعوب وبقسوة مدلولاتها الاستعمارية»[399] . الحال أنه بخصوص هذا النموذج الأخير يلحظ بيرك عن المغارب أن» المظاهر المميزة لنظام رأسمالي هي متراجعة بشكل بديهي بل إنها تختفي هنا حيث اشتراكية الدولة ، أو تعوض بالدولتية بكل بساطة»[400] ، إذ بعد أن» هيمنت النزعات الأكثر تسامحا تجاه الملكية الخاصة ، بما فيها الملكية الأجنبية ، فإن هذه الأخيرة انتهى الأمر باستعادتها حتى في المغرب (1972) « .[401] غير أن « مبادرة الرأسمال الخاص تظل هي القاعدة بالمغرب ، مع أن توسع المكننة ومغربة الدومين الاستعماري لم يمكنا من إقامة معالجة قاعدية»[402] .

IV- تعقد الصيرورة المجالية

يتساءل جاك بيرك» أليس التناقض القائم بين الصيرورة الحضرية والصيرورة القروية هو أحد بقايا الماضي الذي على الدولة الوطنية أن تهاجمه؟»[403] إلا أن هذا الهجوم لم يتم بعد . إن تأطير الفضاء المغاربي الذي يضم»حيوية مصدرين متباعدين :الداخل المتعدد والشرس والمدينة المنتشرة[404] ، لازال في المغارب المعاصرة يطرح المشاكل الأكثر خطورة لرجل الدولة»[405] .فبيرك يرى أن» الولوج الكثيف للقرويين

399 - De l'euphrate 2، p 609.
400 - Magh. hist. et. soc، pp 147-147.
401 - Ibid، p 202.
402 - Ibid، p 203.
403 - Magh. hist. et. soc p 123.
404 - كانت الدار البيضاء تتجاوز في عام 1971 مليون ونصف شخص ، وكان في المغرب 5 270 502 حضري مقابل 9 963 082 قروي (Ibid، p 119) .
405 -Ibid، p 119.

المجتثين أضفى على المدن المغاربية طابعا ريفيا . ومن جهة أخرى ، فإن القرى أصبحت تكتسي طابعا مدينيا ليس فقط لأن التجمعات قد كثرت فيها ، وإنما أيضا بالنظر إلى الصراع المحدث بين الجهاز البشري والموقع الذي يظل لحد الآن خاصية مدينية «[406] .إن هذا الوضع أفرز «مكانين حرجين في المورفولوجيا :المدينة القروية الصغيرة التي تنبثق من القرية المتوسعة والمدينة الكبيرة المنتشرة التي تؤثر بطريقة قهرية على محيطها»[407] .

إلا أنه داخل الفضاء الذاتي للمدينة ، فإن بيرك يرى أنه» في بعض النواحي هناك دمقرطة . ففي أكتوبر 1957 ، عبر محمد الخامس بفاس عن رغبته في فتح جزء هام وذا دلالة من المشور القديم أمام السياحة : قطيعة تجاه الطابوهات و قطيعة مع الممنوعات التي ما كان يبتغيها أو يسمح بها المهندس المعماري القديم .ومن جهة أخرى ، هناك ملاحظة محزنة وهو أنه حول الجدران الهائلة لمدينة فاس بدأت في الظهور أحياء الصفيح في المقالع الرملية التي تشكلت منها المدينة»[408] . ذلك أنه بالرغم من وجود « إرادة حكومية مقصودة تبحث عن تزويد الفيلاج بالخدمات وبعلامات التمدن ، والانتخابات التي تجري بالفيلاج تعمل على إشراك الطاقات العميقة لبلاد الداخل» ،[409] كما أنه» من يقول اليوم المدينة يقول المخطط» ، فإن المدينة المغربية ،

406 -Ibid، p 200.
407 - Magh. hist. et soc p 119.
408 - Ibid، p 151.
409 - Ibid، p 123.

وخاصة مع توقف النظام الكولونيالي ،عرفت توسعا لضواحيها البئيسة التي تعبث بجسم القاطن بها ووقته على السواء ، وتشوه أصالة القروي النازل بها[410] .

V- المغرب الفكري والفني في الميزان

سبق أن رأينا مع بيرك أن تراجع جامعتي القرويين والزيتونة لا يعكس بنظره تقهقرا ثقافيا ،إلا أن» تراجع الكتاب ، خزان الحفاظ ، ينبغي أن يشغل المسؤولين على الأقل فيما يتعلق بمستوى التعريب الذي قد يكون القرآن في النهاية حامل له أكثر من البث الإذاعي أو الجريدة» [411] ،خاصة وأن» أغلب الأعمال الفنية والتعبيرية عامة لازالت توظف اللغة الفرنسية ، الشيء الذي لا يمكن أن لا يثير الجدال . فإذا كان التحرر يعني إعادة اكتشاف الأصيل ، ففي أي مستوى ينبغي إحياء اللغة العربية تحت ترسبات (alluvion) وإيحاء الفرنسية؟»[412] الواقع أن الأصيل عند المغاربة كان ولا زال يعتمل بلغة الضاد ، وهذا ينطبق على» ما اعتبرته أجيال عديدة من المغاربة على مر العصور ،

410 - يقول بيرك عن القاطن الضواحي « إن الساكن المضطرب و البائس في الضواحي ليس إلا قرويا تم انتزاعه وقلعه . لكن توفر مدينة الصفيح إذا كان حقيقة يمدد وجود النمط البدوي ، فإنها حاليا مشوبة بدلالة تحقيرية . إن الوقت النائم للقروي ، المتناغم مع التمرين واللعب الذاتي ، أصبح مضيعة للوقت وتبذيرا اقتصاديا وانحلالا . إن الثقافة البدوية المؤسسة تقليديا على انخراطها الوثيق داخل الطبيعة تلفظ أنفاسها ومعها تلفظ التكامل الذي كانت تنسجه بالعلاقة مع الثقافة المدينية . إن هذا المحو أصبح أكثر بروزا مع توقف النظام الكولونيالي الذي تجاهه كانت تتعشق الشخصية المغاربية ، وما خلقه من وضعيات نموذجية جديدة . إن نظاما جديدا يبحث عن نفسه ، ويتمحور حول الفعالية الجماعية ويميل إلى» الوظائفية» ، لكنه مشلول من قبل مجموعة من « الكوابح» أو» البقايا» . كما أن التشهير الصارم الذي يفرضه على الماضي القريب أو البعيد لا يخلو من غموض» (Magh. hist et soc، pp. 199-200)) .

411 - De l'Euphrate 2، p 487.
412 - Magh . hist et soc. ، p 222.

ولازالت الأغلبية منهم تعتبره ، كأدبهم الوطني أي إنتاجهم بلغتهم الكلاسيكية» .[413] لذلك ، يقول بيرك عن الأدب المغاربي بالفرنسية أنه» لا يكتسي أهميته من ما يقول بقدر ما يكتسي هذه الأهمية من الطريقة التي يقول بها ومن الطريقة التي لا يقول بها «[414] .

يسجل بيرك أن» العديد من المغاربة وصلوا فورا إلى مؤهلات ضخمة قادرة على اختبار حقيقي .فالتحليل السياسي والعرض المذهبي مع علال الفاسي والتاريخ والنقد الأدبي مع المختار السوسي و عبدالله كنون ومحمد داوود و الرواية بعد ذلك بقليل مع عبد الكريم غلاب ، كلها تبرز نهضة لا يمكن دحضها»[415] ، بل إن الفلسفة مع الحبابي و فلسفته الشخصانية والتاريخ والبحث الإيديولوجي مع العروي يبلغان مستوى عالي الجودة تصنف ضمن الإنتاج العالمي"[416] . غير أن ما يشد بيرك هو أن هذا الإنتاج "وإن كان كثيرا منه يعبر عن نفسه بالعربية ، فإن مع ذلك هناك عديدون ، من ذات الجيل ، من كانوا ينتجونه بالفرنسية .أما الآن ، فهم كثر وتزايدوا" [417] . ذلك أنه"

413 - Jacques Berque< Partous pour le Maroc ، (avec Julien Couleau) ، 1ère édition، PUF، 1977، p 212. .
ونرمز له فيما تبقى من الصفحات ب(Partons)

414 - Le Magh. ent. 2 guer. ، p 411.
ومن جهة الأدب الفرنسي عن المغارب يسجل بيرك» يبقى من الصحيح أن ، ولأسباب غير مفهومة كفاية لحد الآن ، أن الأدب الفرنسي لم يلد بعد ، فيما يتعلق بالمغارب ، Delacroix آخر . إنه لم يزود المنطقة بإنتاج يكون بالنسبة للمغارب ما هو إنتاج Kipling بالنسبة للهند ، أو عمل Stevenson أو Ségalen الفرنسي في بحار الجنوب . لا تقولوا هنا كامو لمعاصر لحرب الاستقلال (بالجزائر)» Partons ، p 219 .

415 - Partons ، p 220.
416 - Ibid، p 222.
417 -Ibid ، pp. 220-221.

إذا كان بعض الشباب من جيل الاستقلال يوظفون بذات السهولة كلا اللغتين ، مثل العروي والحبابي ، فإنه لحد الآن عبر اللغة الفرنسية حيث ينفجر بالخصوص إبداعهم واحتجاجهم"[418] .

عن تزايد هؤلاء واندفاعهم للغة الفرنسية ، يواصل بيرك بقوله "لنصفق على جرأة هؤلاء الشباب المغامرين ، وبشكل نعجب به ، إذ اختار معظمهم لغتنا ، بل لغة نوادينا الأدبية (Nos cénacles)) . لكن علينا أن لا ننسى أولئك الذين يوجه إليهم هذا الإبداع وما يقوم به من تفكير وخلق . قد يكون هؤلاء حقا تغيروا كثيرا ،لكن ليس بالأساس إلى الحد الذي نستطيع فيه أن ننازعهم الحق أو حتى الواجب في أن يطلبوا من الكتابة المغربية المعاصرة أن تتحدث إليهم أولا»[419] .

بل إن بيرك يرى أن «ضمن العربية الدارجة وضمن اللهجات الأمازيغية المختلفة-وهذين الناقلين اللغويين هما بنظرنا لا ينبغي فصلهما- نجد أن المغرب يخفي ذات الكنوز التي هي في ملك كل بلد . فالحكاية والأمثال والحوليات والمناقب والقصيدة الملحمية والقصيدة الغنائية سواء التي تؤدى بشكل فردي أو تلك التي تؤدى بشكل جماعي ، كلها تبرز خليطا من الغنى والتعبير الدال»[420] ، بالضبط كما

418 -Ibid، p. 221.

419 -Ibid ، pp. 222-223.

يضيف بيرك في هذه النقطة قائلا" والحال أن العربية هي لغة الشعب .أية عربية بالضبط ؟ الكلاسيكية أو الدارجة ؟ وماذا عن التنويعات الأمازيغية ؟ لكن لندع هذا النقاش الرهيب معلقا . إنه تعود للمغاربيين مهمة حله ، وهم وحدهم يستطيعون ذلك" (Partons، p 221) .

420 -Partons، p. 212.

يدل التعبير باللغة المحلية عن تقدير للذات ، في حين أنه في المغرب» هناك رجوع إلى العربية كأداة للتحديث ، ورجوع إلى الفرنسية بقصد إعادة خلق الذات»[421] ، والحال أن «الرجوع إلى لغة الآخر في بعض مناحي الإنتاج يمكن أن يظهر مناظرا (أو بديلا) للرجوع إلى لغات محتقرة أو مبخوسة من قبل الذات»[422] .

غير أن بيرك يعقب على ذلك بأنه « ضمن هذين الحدين من عمليتي الرجوع ذينك ، المتعارضتين ظاهريا ، يظل الخلق هو المعيار المشترك ، بمعنى تحريك المؤهلات المختزنة ، مؤهلات الذات والعالم . فأية ثقافة تريد نفسها ثقافة بدون أن تنتشر؟ فإذا كان هذا صحيحا ، فإن الثقافة التي هي في طريقها للتشكل بالمغرب ليست إلا تنويعة وطورا من هذه الثقافة الكونية التي إليها يجنح اليوم كل أفراد الشعوب في العالم ، في الوقت الذي يجعل فيه هؤلاء مهمتهم النهائية هي خدمة حقيقتهم الخاصة»[423] .

في الفنون يرى بيرك أن « الهندسة المعمارية هي التي بدون شك من ستكون مبرهنة أكثر عن الإحكام في استيعاب الإسهامات الخارجية ، وفي إعادة توليف هذه الأخيرة في إطار بؤرة خاصة»[424] . وفي داخل البيوت وتحت الخيام ، فإن « الزربية تعكس ترابطات أولية بين الطبيعة المحيطة وبين خيال المغاربة . هذا المخيال الذي يمتد لبقية

421 -Le Magh. ent 2 guer. , p 411.
422 - Partons. p. 224.
423 - Partons. p. 224.
424 -Ibid. p. 206.

المغارب»[425] . أما على الصعيد الموسيقي ، فإذا كان « الأطلس لا زال يقدم مجموعات إن لم تكن أصيلة ، فهي على الأقل ذات تصنع اقل من نظائرها الحضرية»[426] ، فإن بيرك يلحظ أن» المواويل والمقامات هي في تراجع ما أمام الأجناس المزيفة كثيرا القادمة من مصر ، رغم أنها ملائمة للهو»[427] . يلاحظ بيرك أن الشعر لدى الأمازيغ يلحقه تبخيس مواز لذلك الذي يلحق الأجناس البدوية العربية التي أصبحت شيئا فشيئا مرتبطة بشظف العيش والبساطة وحتى النزعة البدائية»428 . وعن الرسم يؤكد بيرك «أنه بالنسبة لشعب يتضرر أكثر مما ينتفع من أولية فنون الكلام ، فإن فيه ربما تكمن إمكانية العودة نحو أصالة حقيقية»[429].وبدون أن نذهب مطولا مع بيرك في عرضه لباقي المظاهر الفنية المغربية ، فهو يرى عامة-وعلى عادته- أنها « تمتح من بأس البيئة الزراعية»[430] ، كما أن «جمعها تحت تسمية الفن التقليدي يمثل إهانة لعمق تناغمها مع وعي وممارسة بل وحتى مع تدبير جماعي ،لم يقولوا كلهم بعد كلمتهم الأخيرة»[431] ، إذ أن» الأشياء غير المعبر عنها ، بل وعلى ما يبدو حتى الأشياء غير المعبرة ، لهما مكانهما ودورهما اللذان عليهما القيام به داخل ثقافة مغربية تريد نفسها للحاضر

425 - Ibid، p 207.
426 - Ibid، p. 208.
427 - Ibid، p. 208.
428 - Ibid، p. 208.
429 - Ibid، p. 209.
430 -Partons، p. 207.
431 - Ibid، p. 209.

والمستقبل»[432] .إذا كان بيرك يسجل أن كتاب « سلوة الأنفاس « لبن جعفر الكتاني الذي كرسه لـ « الأعيان الذين تعاقبوا على فاس أو دفنوا فيها» يقدم بصفة عامة جردا حنينا لانتهاء التاريخ الثقافي للنظام القديم(Ancien Régime)» [433] ، فإن لبيرك أن ينتفض بقوله أن» كل نهضة وطنية ينبغي لها أن تكون بيئية»[434] ، وهذا ما يبدو أن المجتمع المغربي أخذ في استيعابه إذ « في الوقت الذي يدحض فيه هذا المجتمع النظام القائم ، على الأقل النظام الذي أقامه هو بعد تدمير نظام الاستعمار ، فهو يطالب بقسط من فضائله من المناطق غير المستصلحة أو التي لم يتم فك ألغازها من طبيعته وثقافته . إنها غالبا المناطق التي حرمتها الأنظمة السابقة ، والتي يرهبها عموما رجال السلطة»[435] .

---

432 - Ibid، p. 211.
433 - Ibid، p. 215.
434 -De l'Euphrate 2، p. 621.
435 - Magh. hist. et soc. ، p. 216.



خلاصة

بعد أن استوفينا المعطيات التي يقدمها بيرك حول الموضوع حسب التقسيم العمودي : ما قبل الحماية- حماية- الاستقلال ، يكون الوقت قد حان لإقرار بعض الخلاصات .

ابتداء من الفصل الأول لاحظنا كيف أن بيرك يتميز في منهجه بالرغبة في العودة نحو الجذور . يقول بنفسه في هذا الإطار "إن المنهج الذي اخترته ينبع من الملاحظة التي تريد لنفسها أن تكون راديكالية حسب التعريف الماركسي ، حسب ما تعني أنها تنوي" البحث عن الأشياء في الجذور" .عن أية أشياء؟ يجب تتبعها أولا ضمن حياة جماعة ملموسة . وعن أية جذور؟ تلك التي تكشفها العلاقات الأولية لمجموعة مع بيئتها . إن الاستنتاجات المحصل عليها بهذه الطريقة بإمكانها ، في مرحلة ثانية ، أن يتم إسقاطها على مجموعات أكثر توسعا وأكثر تعقيدا"[436] .

وبالموازاة مع هذا المنهج لا يقل أسلوب بيرك عصيانا على الذهاب بعيدا في الحوم حول العبارة بقصد الإفادة لا الحشو . إن أسلوبه يتميز بالصعوبة ، ويوصف تارة ب " الغموض"[437] ، وتارة

436 -De l'Euphrate 2، p. 578.

437 - يتعلق الأمر ب : أحمد بناني ،» كاتبان : لوتورنو وبيرك« ، مجلة البينة ، السنة الأولى ، العدد 4 ، غشت 1962 ، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية ، الرباط ، ص 21 . ويضيف بناني بذات الصفحة « ولولا أن للأستاذ (بيرك) أسلوبا خاصا به ليس في متناول القارئ العادي أن يدركه ، لكان لكتبه القيمة شأن أي شأن عند العامة كما لها شأن كبير عند الخاصة ، وإن كان في كتابه الأخير قام بمجهود يشكر عليه إذ أخذ يجتنب الغموض ما وسعه ذلك»! ونشير إلى أن دراسة بناني هذه لبيرك اقتصرت على مؤلف « المغارب في مابين الحربين» ، بل وحصرا على المحور المخصص للمدن من خلال نموذج فاس . كما أنه يترجم Le Maghreb ب» المغرب « كما لو أننا لازلنا في نهاية الأربعينات عندما كان علال الفاسي ينعت

أخرى ب" طابع الغرابة"[438] (Baroque) ، ذلك أن بيرك يمتلك أسلوبا خاصا به ليس في متناول أي كان أن يدركه كل الإدراك ، بحيث أن الرجل» بعد أن عاش جزءا كبيرا من حياته محتكا بالرجال والأحداث التي شهدتها المنطقة المغاربية ، تكون لديه إحساس حاد يبهر العقول بقدرته على إدراك أخف نبضات قلوب أهل المنطقة جاعلا إياه تقريبا بمثابة مسار علمي . هذا الإحساس الذي يظهر كدعامة أساسية لأعمال بيرك يبهر المغاربيين أنفسهم ، وهذا هو السر في غموض تحليلاته ، هذا الاتجاه نحو المعاني المعلقة ، وفي أسلوبه الخاص الذي يصفه الجميع بالتعقيد»[439] .

قد يكون أسلوب بيرك عصيا على التتبع ، خاصة على المبتدئ . هذا صحيح . إلا أن ما يميز بيرك هو أنه يفترض فيك العلم المسبق بالأحداث التاريخية ، بمعنى أنه يغلب جانب التحليل لا الإخبار . وإذا حصل أن كان موضوع المقالة هو الإخبار ، فهو لا يقدم المعلومة إلا قطرة قطرة ، بعد أن يكون قد أخضع المعلومة التي سبقتها لتصفية تحليلية وافية . يضاف إلى هذا ، أن كتابات بيرك تتطلب التمعن والتأني لا مرور الكرام . لذلك ، فإن التعقيد المشار إليه بإمكانه الزوال عندما يفهم المنحى العام للموضوع المتناول في كل

المغرب الأقصى بمراكش جاعلا تسمية المغرب تعني مجمل المغرب الكبير (عن مشكل التسميات هذا ، انظر هامش رقم 57 ب ص 22) .

438 -Abdelkabir Khatibi، Bilan de la sociologie au Maroc، Publications de l'Association pour la Recherche en Sciences Humaines، p. 20.

439 - Khatibi، op. cit، p. 20.

نقطة على حدة ، أو بالارتباط مع الوحدة الانتسابية للعمل برمته ، أو بشكل أعم إذ يتم ربط هذا الكل بالرؤية العامة التي توجه نظرة بيرك تجاه المغارب والعرب وحضارة الإسلام . وعلاوة على هذا ، فإن بيرك ليس ذو معرفة محدودة أو متخصصة ، بل إنه صاحب الثقافة الموسوعية ، ومن هنا غزارة عبارته . فمعارفه تتنوع ، لذلك نلحظ عنده كثرة اللجوء إلى المقارنة مثل مقارنة الإسلام بالمسيحية ومقارنة المغارب بالصين و مقارنة مولاي إسماعيل بلويس الرابع عشر ومقارنة اليوسي ببوسييه وفينيلون (Fénelon) بل ويقارن أيضا نفسه هو بمن سبقه أو عاصره من أقرانه . إنه زيادة على ذلك يوظف في تحليلاته تخصصات معرفية مختلفة مثل التاريخ ، علم الاجتماع وعلم القانون وعلم الاقتصاد وبالخصوص السيميولوجيا وبعض النزعات الجديدة في علم الاجتماعي الحضري مثل علم اجتماع الأشكال .

إلا أنه مهما بلغ ذلك الغموض ، فإنه لابد للمبتدئ الطامح ، خاصة في التاريخ أو علم الاجتماع أو العلوم السياسية بالمغرب ، من الإطلاع على الأقل على بعض المؤلفات الضخمة لبيرك ، وخاصة في «شكلها الأولي قبل أن تلحقها التنقيحات أو الإضافات»[440] . ذلك أن مؤلفات بيرك حققت قفزة نوعية (وكذلك

440 - Daniel Rivet، Jacques Berque، Un aventurier de l'intelligence، de l'Atlas à l'Euphrate، Hespéris Tamuda، vol. XXXIII، 1995، Faculté des lettres et des sciences humaines، Rabat، p. 7.

كمية) في الكتابة عن المنطقة المغاربية خاصة والعربية عموما . لذلك ، فإن تجاهلها قد يفقد ذلك الطامح إسهاما يندر إيجاد نظيره بالمنطقة .غير أنه بالرغم من الاهتمام الذي أولاه بيرك للمنطقة ، فإن الظاهر هو أن كتبه تحظى بأهمية أكثر من قبل الإيطاليين والأنجلوساكسيين بل والدانماركييـن في حين أن كتبه المترجمة إلى العربية هي قليلة جدا[441] .

تتميز رؤية جاك بيرك تجاه المنطقة التي تحظى بشرف إنتاجاته بأنها تتبنى عموما منحى نقديا بناءا ، فبيرك يطرح نفسه كصديق للعرب ، غير أنه لا يجاملهم إذ يكتشف قصورا معينا . بخصوص المغارب ، يرفض بيرك تنقيص إسهام المنطقة التاريخي كما فعل كثيرون سبقوه إليها مؤكدين على هذا النقص . وبهذا فهو يبرز تميزه عنهم .

إن بيرك لا يشبه الباحثين الأوائل (فرنسيين في معظمهم) الذين سبقوه للبحث في المنطقة ، ذلك أن « خطأهم الكبير كان هو إهمالهم ملاحظة أخلاق العالم الذي كانوا يفحصونه . هذه

441 - من بين المؤلفات النادرة لبيرك المترجمة إلى العربية نذكر :
- L'Egypte، impérialisme et révolution ؛
- L'Orient second ؛
- Dépossession du monde ؛
- Les arabes d'hier à demain .

- وواضح من هذا السرد أن الكتب المعربة هي تلك التي تناولت مصر أو عموم المنطقة العربية (وإن كان مؤلفا من قيمة Langages arabes du présent خارج عنها) ، في حين أن حصيلة الترجمة فيما يتعلق بالمغارب هي صفرية ! فمؤلفان مثلا من قيمة l'intérieur du Maghreb وبالخصوص المؤلف - التحفة le Maghreb entre deux guerres لم يحظ أي منهما ، بحسب علمنا ، بأية ترجمة إلى العربية .

الأخلاق طبعا كانت تصدر عن الإسلام ، لكنهم (...-H. Basset
(Emile Laoust- Westermarck- Bel -E. Doutte هم كانوا يحاولون إخفاء الإسلام ويلحون أكثر من اللازم على الماضي المسلم لإفريقيا الشمالية»[442] . وعن حالة المغرب بصفة خاصة ، يلحظ بيرك أن «الإيحاء الذي تلقاه العديد من الكتاب الأجانب عن البلد لم يكن يذهب في اتجاه تنمية تراثه الثقافي . لقد كان يقصي نفسه من استمرارية ، وخاصة من مستقبل . إنه كان يريد أن يكون آخرا ولمصلحة هذا الآخر (l'Autre)»[443] ، ليخلص إلى أنه» يلزم إذن أن نستعمل ونتجاوز مكتسبات هؤلاء في نفس الوقت ، وأن نسرع في فعل هذا»[444] . غير أن بيرك ليس جاحدا إلى أبعد حد ، فهاهو يوجه مثلا تحية خاصة لليفي بروفنصال الذي «ينبغي أن نوجه له تكريما خاصا عن مؤلفه» مؤرخي

442 - De l'Euphrate 2، p 464.
ويضيف بيرك أن « الشيء الأكثر خطورة هو أنهم كانوا يستوحون من رؤية سياسية مشوهة ، كرد فعل ضد نظام مهيمن عليه من قبل الإسلام . إنه انحياز لصالح الفعل المحلي ضد» نماذجه» الكونية ، أي لصالح الودي والقابل للتصالح والقابل للتحليل ضد ما كان يمكن أن يظهر عدائيا و هاربا وغير قابل للفهم . هكذا فإنه لم يكن فقط يتم الذهاب ضد التوجهات الفارضة لنفسها والمثالات التي تتبناها هذه المجتمعات ، ولكن أيضا بدون شك ضد ديناميتها ، وضد مستقبلها» (Ibid، pp. 465-466) .

443 -Partons، p. 217.
إلا أن بيرك يعقب» لكن هذه التحفظات المؤسسة كثيرا لن تمنعنا من قراءة ، سواء بحكم فائدتها الوثائقية أو الجمالية ، كتابات هؤلاء الراحلين المنفعلين الذين هم ، في حالة المغرب ، -Henri Bosco، Les tha raud، De Amicis ، Pierre Loti Montererlant ، وغيرهم كثير» (Ibid، p. 217) .
كما أن هناك إنتاجا آخر يقترب بنظره من البحث الموضوعي . يقول «لنتذكر على سبيل المثال هؤلاء المكتشفين الذي كانوا يخاطرون أحيانا بحياتهم بإعادة تركيز أنفسهم ، إذا أمكننا القول ، في إطار حقيقة البلد التي ، وإن كان أبناءه يتحسسونها ويعيشونها ، فإنه لم يكن بمقدورهم أن يقولوها بعد للعالم . سلام إذن على Foucauld، Rohlfs، Segonzac مهما كانت تدخلاتهم مشبوهة» (Ibid، p 217) .
444 - De l' Euphrate 2، p. 466.

الشرفاء»»445 .

إن بيرك لا يشبه كذلك الفرنسيين الذين عاصروه تقريبا . إنه ليس هو روبير مونطان (Robert Montagne) ولا الجغرافي الفرنسي غوتييه (E. F. Gautier) . إنه يناقض الأول الذي يدعي أن المغارب (التي يسميها هو شكل دال» برباريا» (Berbérie)) ليس فيها من أحداث عظام ذات قيمة بالمقارنة مع الشرق[446] .

وينتقد الثاني الذي أخطأ في تفسير قضية الإفلاس كما فسر قواعد تعاقبها ابن خلدون[447] .

وبالإضافة إلى التميز في الرؤية هذا ، سيعمد بيرك إلى التميز فكريا عبر إنتاجه الكثير والمتنوع . إنه سيسبر أغوارا في المغارب لم يجرؤ أحد على الذهاب نحوها قبله ، إنه كان يطمح للوصول إلى قاع» المغارة»[448] . إنه يفعل ذلك وبعنف كأنه ينتقم لضعف والده أمام معاصريه[449] . ومن جهة أخرى ، هناك من يذهب إلى

445 - Partons، p. 217.

446 - يقول بيرك عن هذا التقابل « لاشيء سيوضح أكثر الفرق بين أجيال الباحثين ، المتلازم مع تقدم الواقع ذاته ، غير التعارض بين مثل هذا المنظور(منظور روبيرمونطان) ومنظور العمل الحالي « (.le Magh ent. 2 guer. ، p 419) .ولعل بيرك يقصد ب «التلازم مع تقدم الواقع ذاته « ما عبر عنه الخطيبي قائلا» إذا كانت سوسيولوجيا مونطان توقفت ، عبر مصادفة عجيبة ،بالضبط قبل الاستقلال ، فإن إنتاج جاك بيرك يقصد على العكس تأمين سوسيولوجيا تصفية الاستعمار ولعب دور في تحليل التوجهات العالمية المعاصرة» (Khatibi، op. cit، p. 19) .

447 - يقول بيرك عن توجه غوتييه» نصف ألفية بعد ابن خلدون ، فإن الجغرافي الفرنسي (غوتييه) لا يحتفظ منه بغير محضر الإفلاس ، ولكن ليس الوعد بالتجديد والنهضة « ((le Magh. ent. 2 guer. ، p. 420 . هذا الوعد الذي يدافع عنه بيرك بحماسة وغيرة شديدتين .

448 - اكتشفنا في داخل التقرير ما ذا يعني بيرك ب « المغارة» .

449 - فمع أن بيرك يشيد بكتابات والده Augustin Berque التي انصبت حول الجزائر ، إلا أنه يرى أن أباه كان يلقى الاحترام أكثر من قبل الباحثين الفرنسيين مثل George Marçais، Augustin Bernard، William Marçais بصفته موظفا كبيرا في هرمية السلطة الفرنسية بالجزائر لا

أن بعض كتب بيرك تجسد نوعا من السيرة الذاتية أو تستمد منها[450] .

يتميز بيرك أيضا ، في حالة المغرب ، عن ماسينيون مثلا وخاصة من حيث استمرار الاهتمام البحثي بالبلد ضمن إنتاج كل منهما . فبخلاف ماسينيون ، فقد ظل اهتمام بيرك بالمغرب متواترا[451] .

بصفته منتجا لأبحاث أكاديمية تعادل إنتاج المدرسة التي يمثلها هؤلاء . إلا أن بيرك يدافع عن إنتاج والده في مواجهة المدرسة قائلا» ألم يتجاوز أحيانا أو غسطين بيرك المدرسة ذاتها ؟ سنحكم على هذا من خلال المقالات التي كتبها في سنواته الأخيرة والتي تركها غير منشورة» ، مضيفا أن اعتلال صحة والده هي التي منعته من الذهاب أكثر مما وصل إليه إنتاجه الذي يظل ، مع ذلك ، معتبرا . وردت هذه المرافعة من قبل بيرك عن والده في تقديم له بعنوان « Augustin Berque، par un témoin de sa vie» لكتاب والده الذي هو :

Augustin Berque (1884 -1946)، Ecrits sur l'Algérie، Réunis et présentés par Jacques Berque، Archives Maghrébines، Edits. SUD، 1986.

وقد أتى تقديم بيرك في الصفحات الأولى من ص 10 إلى ص 21 . أما المقتطف الذي ترجمناه أعلاه فقد ورد في الصفحة 20 .

450 - Rémy Levau، (lecture de) le Maghreb entre deux guerres، in « le Maghreb en 2000 titres»، Ecrits et lectures sur l'ensemble maghrébin، Fondation du Roi Abdul- Aziz، Casablanca، 1991، pp. 15-16.

يقول لوفو :» فوراء اللهجة المحايدة ، فإن وعاءا بيوغرافيا عميقا يبرز (. . .) فذكريات شبابه بفرندا (Frenda) وحيوية «المكاتب العربية» بالهضاب العليا الجزائرية و الصناع التقليديون بفاس و تعايش الفلاحين والمعمرين في الغرب ، كلها تنبع من تجربته المباشرة حيث تختلط الولادة بالجزائر مع اكتشاف مغرب الثلاثينات « .

451 - فإذا كان ما سينيون قد بدأ رحلته العلمية في العالم الإسلامي بالمغرب من خلال مؤلفه :
Le Maroc dans les premières années du XVI ème siècle، Tableau géographique d'après Léon l'Africain ، فإنه فيما بعد لن يعود للبلد ، بل سيكرس مسيرته العلمية للتصوف الإسلامي ، فانغمس بذلك مع المتصوفة (إلا أن الرجل ، فيما يتعلق بالمستوى السياسي ، دافع بحماسة عن استقلال المغرب ، خاصة بعد تأسيسه « لجنة فرنسا – المغارب» وقد تضامن بشكل خاص مع القضية المغربية ، فزار محمد الخامس بلارينيون وعلال الفاسي بالغابون . وقد اعترف هؤلاء بهذا الجميل بعد الاستقلال) . وقد نظمت مجلة Esprit مناظرة جمعت بين ما سينيون وبيرك ، اعترف فيها الأول أن الثاني يتجاوزه فيما يتعلق بالمعطيات المغاربية والعربية . إلا أن بيرك اللبق رفض بأدب هذا قائلا أن ما سينيون ليس في تراجع كما يدعي هو . الواقع أن كلا الرجلين يظلا اسمين كبيرين ، وكان يرجع إليهما بكثرة في العالم الغربي كقطبين فيما يتعلق بالإسلامولوجيا .

بعد التطرق لمظاهر التفرد هاته التي تجعل بيرك يحتل مكانة متميزة ضمن رقعة الباحثين الذين اهتموا بدراسة مجمل المنطقة الإسلامية- العربية ، وبالخصوص فيما يتعلق بدراسة حالة المغرب ، هل يبقى من الموافق القول أن إسهام بيرك أضحى متجاوزا؟

الواقع أن موضوع بيرك ، في تقديرنا ، لازال ينتظره الكثير من الاهتمام . إن هذا الاهتمام سيكون إيجابيا ومثمرا لفائدة المغرب والمغاربة . نعتقد كذلك أن الباحث الذي قد يكرس له بعضا من وقته لا يستطيع يوما أن يندم على الوقت الذي استغله في قراءة بيرك مهما كانت كتاباته «منفرة» بمعنى «غامضة» . لا داعي للتكرار . فقد قلنا أنها ليست معقدة أو غامضة ، بل تتطلب وضعها في الإطار المتعلق بمشروع الرجل ومساره ومراميه وقصة عشقه للمغارب والعرب والإسلام فضلا عن تمكنه النظري الواسع الذي كان يغني أرضيته الميدانية الأكثر رحابة ، فكان الرجل ما أن يشرع في الكتابة حتى يتقاطر ذلك الفيض في بناءات لغوية رهيبة ، لكنها- لن نمل من تكرار هذا- ليست معقدة .

ما يثير الفضول في حالة بيرك هو أنك مهما قدرت مجهوده الفكري الخلاق ، فإن ما سيثيرك أكثر في الرجل هو الرجل ذاته . أحس بهذا كثيرون ، من مواطنيه ومن الأنجلوساكسونيين ؛ ومن المغاربة وعلى الأرجح كذلك من المصريين مهما أصروا على أن

مصر هي أم الدنيا . الكل سَيُحِبُّ بيرك رغما عنه . الباعث؟ حبه للمغارب أولا ، وهو القائل عنها» إن جمرة الهوية لن تنطفئ فيها . وسنعرف قريبا أن من أمكنة الجمر أو أمكنة الوحل هذه ، فإن مغاربا مؤكدة كانت آتية لتنبعث»[452] . يتعلق الأمر ثانية بحبه لمجموع الشرق ، فهو الذي بشر بشرق جديد» بمعنى استعادة الشخصية والأنوار المفتقدتين»[453].

لقد أدخل بيرك اليوسي مجال الشهرة والعالمية ، فهل نخرج نحن بيرك ، الشهير أصلا ، من دائرة النسيان؟[454]

452 - Le Magh. Ent. 2 guer.، p 425.
453 - Mohammed Boughali، lecture de « l'Orient second »، Plaidoyer pour le monde rural، Lamalif، N° 52، Janv- Fèv 1972، p 26.

454 - هذا إذا كنا نفضل الرجوع إلى كتابات ثقيلة تذهب بالتحليل في ميدان التاريخ أو علم الاجتماع أو العلوم السياسية مثلا في اتجاه مسارات تدفعها بها للأمام ، خاصة وأنه بإمكاننا القول ، مع عبد الله العروي ، أن الكتب الموجودة في السوق هي سوقية بالفعل . وعلى ذكر اليوسي ، فقد جد بيرك كثيرا في تقديم عمل جامع بناء عن العلامة . ويرى الناشر للطبعة الثانية لكتاب بيرك حول اليوسي (مركز طارق بن زياد) أن إعادة نشر كتاب بيرك حول اليوسي هي بمثابة تكريم لكلا الرجلين الفريدين . لنصفق على هذه البادرة بالضبط كما تقدر مبادرة مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء في مؤلفها البيبليوغرافي الضخم» المغارب في 2000 عنوان « الذي وضع التقارير والقراءات عن كتب بيرك في مقدمة الفقرة التي تهم التقارير عن الكتب المخصصة للمنطقة . كما أنها حازت نسبة كبيرة ، إذ تجاوزت ثلث المساحة من مجموع القراءات . إن هذا بالضبط هو مركز بيرك : القمة والنصيب الأوفر لا النسيان . أما أن يأتي D. Rivet ويقول لنا أن بيرك قد تجووز من قبل المثقفين اللاحقين ، الوطنيين بالخصوص ، فإننا قد نصدقه مادمنا نجهل بيرك . غير ما أن نتعرف على بيرك حتى نرفض هذا الإدعاء قطعا . قد نقول أنه ادعاء يصدر عن مؤلفين يطمحون نحو الدرجة الأولى ، وعند العجز أو الفشل يصبحون نقادا من الدرجة الثانية . نحن نعتقد أن كتابات بيرك هي بمثابة تحف فنية نحتت بشكل جيد . ومعلوم أن إحدى خاصيات العمل الفني الجيد هي الخلود .

فيما يشبه الخاتمة: بالرفقة مع جاك بيرك

«ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»[455]

تلكم إكانت الرحلة مع «بيرك المغربي» . لقد تجرأنا على أن نقارب بيرك مع أن المؤرخ دانييل ريفي يشير إلى أنه» يلزم الكثير من الطمأنينة ، بل ربما حتى كثير من الغرور ، من أجل مقاربة أعمال جاك بيرك»[456] . وعليه تلزم الإشارة أن الرحلة تلك لامست مجرد الطبقة السطحية من معلومات بيرك وعملت (أحيانا أكثر من اللازم) على «تبسيط» أعماله الغنية وذات العبارة الغزيرة .

أعتبر أن هذه الكلمة تصبو لأن تكون مجرد «شبه خاتمة» . أعتقد أن بعض ما قدمناه من خلاصات كان كافيا . لا يمكن أن «نختم» الكلام عن بيرك ونحن لم نراجع سوى نسبة قليلة من إنتاجه الكثير والغني والمتنوع[457] . لذلك أجعل هذه الكلمة في شكل الخاطرة . على القارئ أن يتفهم .

أعتقد أنني ، ومنذ أن تعرفت على جاك بيرك إلى غاية الانتهاء من إنجاز بحثي الجامعي ، قد قضيت أوقاتا عظيمة رفقته .

هو أيضا حرمني طيلة شهور من رؤية شاشات تجتهد لأن تكون

455 - قرآن كريم (سورة لقمان ، الآية 20) .

456 -Daniel Rivet , op. cit, p. 7.

457 - انظر الملحق لمعرفة مدى كثرة وتنوع هذا الإنتاج وبالتالي مدى حقيقة هذه النسبة القليلة التي اعتمدنا عليها .

شهية ، إلا أن طبق بيرك هو بالتأكيد ، مع أنه أمر ، أشهى . إن بيرك كان يتهجسني ويحرمني من الفائدة . قد يحدث هذا مع أية عملية بحث ، لكن يبدو أنه من سيشرب من كأس بيرك سيشعر أن طعمها قوي ومن نوع خاص!

أترجى أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة صادقة عن ما أهداه بيرك من بنات أفكاره للأرض التي رغم أنه تركها لحظة ، فهو لم ينسها أبدا : المغرب .

ربما كان بيرك يود للاستعمار الفرنسي أن ينصهر أكثر مما فعل حتى ينال رضاه ؛ ربما كان يتحسر جديا إذ يكتشف أن الذروة المزعومة هي مغلوطة ؛ ربما تمنى لو أن الفرنسيين هم من بلغوا قاع" المغارة" ؛ ربما أنه أرخ لليوسي فقط لأنه يرى فيه صورة معينة عن ذاته ؛ ربما يكون قد أنتج كل ما أنتجه انتقاما لوالده ؛ ربما كان يدون سيرة ذاتية ذات نمط غير مسبوق . . .إن" ربما "هاته تبقى ربما . أما عشق بيرك للمغارب ، والمغرب أولى ، فتكشفه أشياء كثيرة .

كان الكثير من الناس يسألونني عن موضوع بحثي ، فأقول عن صورة للمغرب وفق نظرة شخص يدعى جاك بيرك . أجاب البعض أنهم يسمعون به . كان بعضهم لا يعرف غير المركز الذي يحمل اسمه بالرباط .أما الأغلبية فكانت تجهله .ورغبة مني في إبراز جودة اختياري ، أقول لهم أنه ترجم كما فسر القرآن . عندئذ يرد معظمهم : وهل أعلن إسلامه؟ أرد أنه على حد علمي فهو لم يعلن إسلامه ،

فيصاب السائل بخيبة أمل ، أو يقول أن بيرك هذا لا خير فيه .

أكون أسعد لو أن بيرك أعلن إسلامه . غير أنه ، مع ذلك ، فقد علمنا أشياء كثيرة . أهمها؟ لا أدري . اسألوه . قد يكون إحداها" الحاجة إلى إعمال العقل في الأشياء ، وإلى الأشياء في إعمال العقل"[458] .

انتهى بحمد الله

458 - Magh. hist. et soc. p. 202.

ملحق : جاك بيرك و قراؤه

لماذا إثارة جاك بيرك؟ نثيره لأنه يعنينا . يعنينا كمغاربة (عربا وأمازيغ) وكعرب وكمسلمين . يعنينا بالدرجة الأولى بحكم النظرة الإيجابية التي يوجهها صوب هذه الكيانات الثلاث . يدعونا جاك بيرك بكل إخلاص إلى التشبث بالأصالة ، وفي مقدمتها الدين واللغة . برهن الرجل هو ذاته على هذا الاتجاه . في قراءاته وتحليلاته للإنتاجات العربية لم يراجع المؤلفات المكتوبة بلغة موليير أو شكسبير ، وفي الإسلام بحث عن علاج ما للمسيحية . صحيح أنه كان يبحث عن مكان ما للفرنكفونية في الدول العربية ويتباهى بالانتصار الذي تحققه (حتى في مصر) على الأنجلوفونية . لكنه في هذه الحالة يتحدث جاك بيرك بصفته فرنسيا ، وبالتالي فهو لا يعنينا . يعنينا جاك بيرك عندما نكون نحن المعنيين .

ما المقصود بالنظرة الإيجابية ؟ وما هي حدود هذا الصدق؟ الجواب الحاسم يستلزم تبرير عمل بيرك كله . والحال أن هذا الإنتاج الكثير والمتنوع لم يخن أبدا التوجه الذي اختاره لنفسه : نظرة المؤرخ الاجتماعي الذي يرصد الإحباط والأمل . الأهم أنه إذ يتصور إمكانية العلاج ، فهو عندئذ يصبح أكثر أصالة من أولئك المعنيين الذي «باعوا» ألسنتهم ، وربما عقولهم . هل سيحاكمهم المجتمع يوما؟ للمجتمع قضايا كثيرة قد يحاكَم عليها قبل أن يحاكِم عليها . يطرح بيرك السؤال ولا يقترح الجواب . وأنى له أن

يجيب؟ إنه يحيل القضية على أصحابها المعنيين بها . إنه يقدم نفسه فقط كصديق محب . لكنه ليس مجردا هذا . إنه عندما يقترح فهو لا يجامل . وإذا حصل أنه جامل ، فإن المجاملة يعقبها صدق يبدو قاسيا ومؤلما جدا!

عند الحديث عن جاك بيرك يُفترض في الدارس القدرة والتمرس على التعيين والتمييز ضمن إنتاج مركب متضمن لجملة مستويات تتفاوت في أهميتها . أرى أن محمد بوغالي[459] كان بعيد الدراية في تبين رؤية جاك بيرك إذ يختم بحثه عن المؤرخ الاجتماعي للعرب بالرؤية البيركية التي ترى أن العالم بأسره يتجه كرها وبالضرورة نحو الاندماج ، وبالتالي ما على العرب إلا أن يواكبوا هذا الاتجاه الحتمي . مع ذلك ، يبدو أن المستوى الأعمق الذي يميز تصور جاك بيرك ينصب على ما يقدمه كل مكون إنساني أو مجموعة إقليمية أو وطنية للعالمين ، وليس على هذه العالمية في حد ذاتها . وبالضبط كما يرفض هذا الاختزال ، يرفض بالأولى تركيز جاك لانغ ، وزير الثقافة الفرنسي السابق ، في منتدى أصيلة[460] على فكرة جاك بيرك الداعية إلى تحالف حضاري بين العالم العربي والغرب ، إذ أن هذه الإشارة لا تعدو أن تكون هامشية في إنتاج جاك بيرك الكثير والمتنوع . إن الدعوة إلى النموذج الأندلسي أو الحلم الأندلسي تظهر

459 - Mohammed Boughali، Jacques Berque ou la saveur du monde arabe، Editions de La Porte، 1995.

460 - جريدة المساء ، عدد 585 (غشت 2008) .

في العديد من كتابات جاك بيرك ، لكنها لا تأتي في الغالب إلا في آخر مؤلفاته عبارة عن تمنيات إنسانية بغد أفضل .

وعلى خلاف جاك لانغ ، يظهر أن جورج طرابيشي كان أكثر توفيقا في إعطاء صورة صادقة عن جاك بيرك ، لكنها تظل بدورها ناقصة . تنصب قراءة طرابيشي على كتاب متأخر في مسار بيرك الفكري ، وهو كتاب «و يبقى هناك مستقبل» الذي هو بالتحديد ليس مؤلفا ، وإنما هو عبارة عن حوار مطول ، في تسعة عشر فصلا ، أجراه معه الناقد الأدبي الفرنسي جان سور عقب صدور ترجمته للقرآن الكريم ؛ وهو حوار ، يقول طرابيشي» تحول ، بعد وفاة بيرك ، إلى ما يشبه الوصية الأخيرة»[461]. تظهر أهمية قراءة طرابيشي في أنها تعطي نظرة كافية عن «بيرك الفيلسوف» المعني بالتوفيق بين الحداثة التكنولوجية ، الغربية بخاصة[462]. وإسهام الأديان ، وبخاصة الإسلام والمسيحية . إلا أن هذا الجانب لا يشكل إلا جزءا من فكر جاك بيرك بدأ يتبلور منذ بداية الثمانينات مع صدور كتاب» الإسلام في مواجهة التحدي» ، في حين لا يشير طرابيشي إلى

---

461 - جورج طرابيشي ، " جاك بيرك يطرح الأسئلة الكونية الاستثنائية" جريدة الصحيفة ، عدد 96 ،(9 يناير 2007 ، نقلا عن " النهار" اللبنانية) .

462 - يشير طرابيشي أن بيرك ينقد في الحداثة ليس المقولة بحد ذاتها ، بل الصفات الملحقة بها . فهو ينقد أولا الحداثة الغربية من حيث إنها غربية حصرا ، ولم تفلح بعد في أن تكون عالمية . وهو ينقد الحداثة الغربية ثانيا من حيث إنها حداثة تكنولوجية ، حداثة مصانع وآلات ، وحتمية سببية ومادية ،ورؤية وضعية وعلموية ، دون استبطان واستدماج للبعد الروحي ولمبدأ المغايرة والاختلاف الذي هو ضامن التعددية في العالم الذي يفقد نكهته إذا ما صار أحاديا ومقولبا بقالب واحد . وينقد بيرك الحداثة الغربية ثالثا وأخيرا من حيث إنها حداثة إعلامية ، لا حوارية . فالعالم الحديث هو عالم شبكات إعلام ؛ والإعلام هو فاعلية من طرف واحد باتجاه المتلقي الذي لا يعود له من نصاب ، داخل الشبكة ، سوى المفعولية .

كل ما سبق هذه الفترة . بل إنه يجهلها : فهو يثير مثلا أن جاك بيرك تأثر بشروط الحياة والكدح والفقر وعذابات النساء والفلاحين في جبال الأطلس الأعلى في الجزائر التي عاش فيها في شبابه ، في حين أننا نعلم أن بيرك عاش فترة معينة بالأطلس الكبير (وليس الأعلى) في المغرب (وليس في الجزائر) .

تظل مساهمة المؤرخ دانييل ريفي الأهم ، بين الفرنسيين بالتحديد ، في تقديم نظرة ، تركيبية بخاصة ، عن جاك بيرك . وبهذا يكون من المفيد والمطلوب مناقشة قراءته بشيء من التفصيل . صحيح أن ريڤي قد لا يكون مهتما بشكل خاص بإنتاج جاك بيرك ، إلا أن مقالته المركزة[463] تفصح عن اهتمام خاص ، بل ومبالغ فيه ، بأعمال جاك بيرك . وبالإضافة إلى هذا ، فإن مقالته تجمع مابين الرغبة في الإشادة والتطلع إلى تحديد الأفق ، بل ربما- لنقلها ليس بكثير من المجازفة- إلى الميل نحو» قتل الأب» .

يشير دانييل ريفي أن مؤلف بيرك عن مصر ،» مصر بين الامبريالية والثورة» (الذي يثيره حجمه (750 ص) وليس مضامينه) يشكل نوعا من الأفق في مسار الرجل (الأسلوبي والتحليلي على الأخص) . إن هذه الملاحظة تتضمن قدرا كبيرا من الصواب ، لكن فقط عند ما يقارن ذلك المؤلف مع كتاب «المغارب في فترة

463 -Daniel Rivet، Jacques Berque (1910-1945): Un aventurier de l'intelligence، de l'atlas à l'Euphrate، Hespéris Tamuda، Vol XXXIII، Rabat، 1995، pp7-15.

مابين الحربين» الذي صدر أولا ، في حين أن قراءة ريڤي ببساطة لا تشمل بعض أهم مؤلفات بيرك العربية[464] (مثل «الأشكال التعبيرية العربية المعاصرة» الذي يرصد فيه بيرك التحولات التي طرأت على لغة الضاد منذ امرؤ القيس الذي زار بيرك المناطق التي تغنى بها في شعره مثل حومل معسل ومقرات مع الأمل في العثور على نعامة لم يَطلها انقراض إلى غاية أدونيس وأمل دنقل ، وأيضا مؤلف « من الفرات إلى الأطلس» الذي يثير بدوره من ناحية الكم (730ص) . وعلاوة على هذا ، فإنه من الواضح أن مطمح كل مؤلف ينصب على تكريس أسلوب مميز له ، وأسلوب بيرك فريد جدا .

الغريب والخطير في الأمر أن يدعي ريڤي أن بيرك فاته الركب ، بل تم تجاوزه من قبل البحاثة الجدد الذين لديهم ميل واضح- حسب ريڤي- نحو «قتل الأب»[465]. هل يقصد ريڤي نفسه؟ لا يهم . ما يهمنا الآن هو بيرك . عندما شرع جاك بيرك مع بداية الثمانينات في دراسة العرب والإسلام بطريقة تختلف عن الطريقة التي اشتغل بها بيرك قبلا ، يرى ريڤي أن بيرك يعود بهذا نحو

464 - نقول مؤلفات جاك بيرك العربية كما نقول مؤلفاته المغربية والمغاربية والإسلامية والعالمثالثية ثم تلك التي تهم علم اجتماع الأديان المقارن ثم تلك التي تهم المجتمع المعاصر بدون أي لعب على الكلمات .

465 - عبارة ريڤي هي :

« Vingt ans plus tard، c'est au tour de Berque d'être dépassé par l'histoire immédiate et débordé par une nouvelle génération de politologues et anthropologues، qui pratiquent allègrement le meurtre du père» (Ibid، pp. 13-14).

استشراق جديد . ما كان ينبغي الاختزال بهذه السهولة من قبل ناقد يحاول أن يقدم لقراء مجلة متخصصة عملا تركيبيا عن باحث توفي للتو . مهما يكن ، نذكر البروفيسور ريڤي أنه إذا كان يقصد بالتجاوز ميل الباحثين الجدد نحو المباحث المتخصصة عوضا من الأعمال التركيبية ، فإن بيرك دشن مساره العلمي بهذا النوع من الأعمال (مثلا مؤلفه عن الصناعة التقليدية بفاس عدد فيه الحرف وأصنافها ؛ كتابة الهائل عن سكساوة يشكل مبحثة كلاسيكية مسح فيها بيرك العباد والبلاد و ما عليها من مغارة أو ضريح أو «كركور» إلخ) . أما إذا كان يقصد ريڤي أن بيرك كان عليه في نهاية الثمانيات وبداية التسعينات أن ينتج أعمالا تنبئية عن العام 2000 ، فإنه ما كان لجاك بيرك أن يعمر ألف سنة! وبمناسبة إثارة الموت ، فإن الملاحظ هو الحضور الكثيف والخفي لهذه التيمة عند هذا الكاثوليكي الذي فك العهد مع أوغسطين وباسكال من بعده . وهذا الحضور بالضبط يساعد على دحض تبسيط ريفي . فبيرك كان دائما على وعي (بل على هول) بمدى قصر حياة الفرد (تارة استعمل عبارة «ما هي (الدنيا) إلا كلمح البصر») وبالتالي قصورها في استيفاء المواضيع . والحال أن هذه الشخصية المسكونة بهاجس الحياة والممات عمدت إلى ترتيب أولوياتها . فكان الانتقال من المغرب إلى المغارب إلى مصر إلى العرب إلى العالم الثالث ثم إلى الإسلام ثم إلى باقي العالم . ولم يكن

الترتيب اعتباطيا . فمثلا عند تحريره لمؤلف «مصر بين الإمبريالية والثورة» في عام 1967 يخبرنا الرجل» إن قاعدة مراجعي لم تكن لتستمر إلى مالا نهاية . ليس لأن الموضوع يتيح هذه الإمكانية أو يفرضها . بل لأنه بالضبط لم يكن بإمكاني أن أكرس لهذه الدراسة (عن مصر) ، مهما كانت أهميتها ، ما تبقى من مسار يتحتم عليه مواجهة مشاريع علمية جديدة . وعليه ، فإني عملت على الدفع بالبحث إلى الحد الذي يسمح بتقديم نظرة شاملة»[466]. وبه اكتفى بيرك بالعرض المقدم (750 صفحة مجرد عرض!) لأن مشاغل أخرى في الطريق .

لا ندري إن كانت هذه المشاغل تضم وقتئذ ترجمة القرآن أيضا ، لكنها لم تكن وليست تضم ما يسميه ريفي بالاستشراق الجديد . ومع أنه في سنة 1974 ، مع صدور» الأشكال التعبيرية العربية المعاصرة» ، قدم بيرك قراءة مركزة للقرآن ، فإن هذه القراءة تمت بغرض المقارنة مع التحول الذي مس اللغة العربية ضمن حقول تعبيرية أخرى . أما القسم المتعلق بالترجمة فهو لم يتم الشروع فيه كفكرة وعملية على حد قول بيرك إلا مع عام 1982 وبإلحاح شديد وأخوي من طرف مدير دار النشر «سندباد» ، في حين أنه عند تقديم جاك بيرك لترجمة جان گروسجان للقرآن لم تكن لديه سوى

466 - Jacques Berque، L4Egypte، Impérialisme et révolution، Editions Gallimard، 1967، p . 10.

معرفة محدودة بالقرآن الكريم . وعلى كل حال ،لنترك للرجل فرصة الدفاع عن نفسه ، كما جاء ذلك في «مقدمته»[467] للكتاب الذي ضم ترجمة القرآن وملحقا بعنوان «إعادة قراءة القرآن» ، وذلك خمس سنوات فقط قبل وفاته :» وإذ يستقر هذا الخيار (الجمع بين الترجمة وإعادة القراءة) ، يكون من الممكن أن نفهم كيف أن باحثا كرس نفسه لحد الآن لدراسة الإسلام المعاصر وقواعده الاجتماعية ورؤاه المستقبلية ، لم يخيل إليه أنه خان مساره العلمي بتكريس كل هذا المجهود لعمل استشراقي ؛ هذا المجهود الذي يستعين بإسهامات مختلفة : اللسانيات والتاريخ الشرقي والتحليلات المفهومية دون إغفال أنتروبولوجيا الأديان»[468].

الأمرُّ في القضية عندما يرى ريفي أن جاك بيرك ، بعد كل تلك الصولة والجولة في العالم العربي ، لا يبرح مكانه إلا ليأخذه بجانب ما سينيون . قد تكون المسافة بين الرجلين ، وكلاهما يستحقان الاعتبار ، كل في مستواه وهو ما يؤكده عليه بيرك ، هي ذات المسافة بين ريفي وبيرك : أكيد أن فرنسا ، مهما اجتهدت ، من الصعب أن تهدينا بيركا جديدا! منذ حداثة عهده بدراسة

467 - وضعنا المزدوجتين لأن بيرك يتحفظ بل ويعترض بصراحة على أن يقدم القرآن On ne préface pas le Coran)) . وهذا ما حصل حقا ، فتلك الصفحات الأربع التي وضعت في البداية لم يكن المقصود بها سوى تقديم معلومات عن بداية الفكرة وخطة الترجمة وتبرير العمل وشكر الامتنان .

468 - Jacques Berque، le Coran، essai de traduction، Edition revue et corrigée، Editions Albin Michel، Paris ، 1995، p. 15.

العرب ، كان جاك بيرك يؤكد ويجهد في التأكيد على ما يفصل مقاربته عن مقاربة «الشيخ المثير للإعجاب» (هكذا كان بيرك يسمي ماسينيون) ، ثم ينتظر وفاته لدفنه بجانب ما سينيون الذي أولى اهتماما خاصا للحوار بين الأديان محاولا كشف نقط التقاطع فيما بينها!

دعونا نقولها بصراحة : إن الجانب المتعلق بالحوار بين الأديان أو التوفيق بين الاشتراكية والإسلام أو غيرها من التوافقات التي كان يحلو لجاك بيرك الدعوة إليها تشكل الجانب الأقل تشويقا والأكثر هامشية في أعمال بيرك ، وبالتالي فإنه لابد من وضعها في هذا الإطار ، أي جملة اعتراضية ضمن محمول أهم . وعليه ، إذا كانت تفهم ، بل تثمَّن ، إشارة جاك لانغ لذلك الجانب الحواري مادام أن الأمر يتعلق بمنتدى موضوعه نفسه هو حوار الحضارات ، فإنه من غير المقبول أن يختم مؤرخ متمرس كدانييل ريفي نبذة تركيبية بالتركيز على ما هو هامشي في سيرة علمية متميزة .

تلقي مقالة ريفي الضوء أيضا على ما يمكن أن نسميه اختصارا «بيرك السياسي» . الواقع أن مقالته تثير هذا الجانب أكثر مما تفصح عن حيثياته . يشير ريفي إلى مذكرة حررها بيرك في فاتح مارس 1947 داعيا فيها إلى «منهج سياسي جديد لفرنسا بالمغرب» . يدعو هذا النهج إلى فك الارتباط القائم بين السلطان والوطنية

البورجوازية من جهة والاحتلال الممثل في سلطات الحماية من جهة أخرى ، وإبداله بتحالف جديد يجمع المغاربة المحبين لفرنسا من جهة والفرنسيين التقدميين من جهة أخرى . وبينما يشيد شارل أندري جوليان وفانسان مونتاي بمشروع بيرك باعتباره يكشف أفكار شخص متمرس ونافذ العقل ، يرى ريفي أنه لابد من قراءة المذكرة في كل تفاصيلها قبل إصدار أي حكم . هل يوحي ريفي أن انتصار بيرك لاستقلال المغرب كان مجرد ذريعة؟ الواقع أن طلاقه مع الحماية لم يتبلور إلا بعد أحداث الدار البيضاء في دجنبر 1952 ، وهي ذات الفترة التي فارق فيها بيرك المغرب للانتقال إلى مصر ، هذا الانتقال الذي يرى ريفي أن روبير مونطان لعب فيه دورا معينا .

في انتظار نشر تلك المذكرة (62 صفحة) كما يأمل ذلك دانييل ريفي الذي يرى فيها «الوثيقة السياسية الوحيدة التي برزت حول المغرب منذ عهد ليوطي من لدن إداري محنك داخل جهاز الحماية» ، فإنه لا يمكن إلا الاتفاق مع ريفي في هذا الصدد . فشخصية جاك بيرك تبدو قوية ومتماسكة في المواقف التي اختبرت فيها كما يظهر عندما يشير هو ذاته لبعض مثل اللحظات ، وإن بشكل ضمني . بل وحتى عندما لا يفصح ، نحس أحيانا أن الرجل يخفي ويوارب . وعليه ، فلا شك أن بيرك كان شرسا ،

راغبا في تحطيم الأسوار التي يضعها الآخرون أمامه عندما كان لا يزال في «المغرب الفرنسي» . فالرجل كان يطمح إلى تفجير مواهبه فتشعر أنه كان يريد قلب الطاولة على الجميع لأن عيناه ببساطة كانت برفقة مارك بلوك ومارسيل موس وكلود ليفي ستروس . وعليه ، فإنه رغم تأبينه المؤثر لروبير مونطان عند وفاة هذا الأخير ، فإنه من المحتمل أن منافسة شرسة كان تدور بين الرجلين وغيرهما ، على الأقل فيما يتعلق بالتنافس حول تربع عرش الدائرة العلمية والهياكل المتعلقة بالدراسات التابعة للحماية . يمكن القول إذن كتخمين- والتخمين يظل تخمينا في انتظار نشر المذكرة المعنية- أن داهية مثل جاك بيرك لا يمكن أن يظل بمعزل عن الصراع الذي كان دائرا آنذاك بين المثقفين الفرنسيين في المغرب ، وفي المغارب بالأعم . بل إن مجرد ما يكشفه ريفي يوضح أن بيرك كان جسورا وشرسا وعازما على فرض رؤيته وتحقيق أحلامه في مغرب» طارت منه الموهبة بعد رحيل ليوطي» حسب عبارة بيرك (وكما يرصد ريفي شراسة بيرك هذه ، فأنى له يتوقع أن شخصية بمثل هذه الحدة يمكن أن تختم مسيرتها العلمية في أحضان الاستشراق مهما كان جديدا؟!) الواقع أن شراسة جاك بيرك يمكن تلمسها أيضا على مستوى آخر ، مدى انتصاره وتحيزه ، بل وتعصبه للفرنكفونية .

يستغل بيرك العديد من المناسبات للتعبير عن هذا التعصب ،

فتارة يشيد بالرجال الذين أسسوا لوجود فرنسا بالعالم العربي ، وتارة أخرى يفتخر بخصائص الوجود الفرنسي بالمغارب . إلا أن المظهر الأبرز لذلك التعصب يظهر عندما يتعلق الأمر بمواجهة الأنجلوساكسونيين ، إن سياسيا أو أكاديميا . فمن الناحية الأكاديمية ، فهو يرى مثلا أن النموذج الانقسامي الذي يتبناه الباحثون الأنجلوساكسونيون «يقوم في الجوهر على ذات السذاجة التي تحرك البيروقراطي الاستعماري الذي يعتقد أنه باستطاعته التحكم في المجموعات التي يشرف عليها باستغلال الخصوصيات التي تنبني عليها ، وبالتالي إعادة بنائها بما يخدم أهدافه من خلال اللعب على اندفاعات وتجاذبات قاعدية»[469]. وإذا كان دانييل ريفي يشير إلى أن التعيين «بكوليج دو فرانس» باغت بيرك وهو في طور الإعداد لمعهد لدراسة اللغة والحضارة العربيتين بلبنان ، فإن بيرك يشير في مؤلفه «الأشكال التعبيرية العربية المعاصرة»[470] إلى أن خبير اليونسكو في لبنان (على الأرجح يتعلق الأمر بجاك بيرك نفسه مع أنه فضل أن يترك القضية مغفلة) لم يتمكن من إنشاء معهد للعلوم الاجتماعية نظرا للصعوبات التي لاقها خاصة من الرئيس الإداري لوحدة اليونسكو المكلفة بالأبحاث التي كان على

469 - Jacques Berque، Structures sociales du Haut- Atlas، PUF، Paris، 1978، p 481.

470 -Jacques Berque، Langages ، pp. 90-91.

رأسها شخص إنجليزي . وعلى الصعيد السياسي ، يحفل مثلا مؤلف «مصر بين الامبريالية والثورة» بالعديد من أحكام القيمة التي يعمد من خلالها بيرك إلى تبخيس الإسهام الأنجلوساكسوني في مصر . ومع أن بيرك يقدم الكثير من المعطيات التي تبرر خلاصاته ، فإنه من الصعب تصديقه إذ يقول « لقد تخلص الانجليز من الفرنسيين (في مصر) . وأخيرا ، فإن أيديهم مطلقة ليفعلوا ما يشاءون . ماذا سيفعلون؟ لم يفعلوا شيئا»[471]. وفي مقابل تنقيص دور كرومر وباقي المسؤولين الانجليزيين بمصر يشيد بيرك بحصافة ليوطي بالمغرب وبدور القناصلة الفرنسيين بالقاهرة ، بل إنه يبرر هفواتهم إذ يقول :» إن المؤرخ الفرنسي ، القاسي بشكل مفهوم تجاه البريطانيين ،عليه بالمثل أن لا يتردد إطلاقا في التنديد بالأخطاء التي يرتكبها مواطنيه . إلا أن هذه الأخطاء يمكن اعتبارها ، إذا أمكن القول ،على أنها تنبع من طبيعة المؤسسة»[472]. ورغم هذا التحيز أو التغافل عن الموضوعية ، وبغض النظر عن تلك الشراسة التي أظهرها بيرك في الدفاع عن مصالحه الشخصية ، فإن هذا الفصل لا يمثل الجانب المثير في أعمال جاك بيرك . ولنكرر القول أنه لا يعنينا بيرك الفرنسي عندما يجابه غيره من الفرنسيين أو بيرك الفرنكفوني إذ يعادي الأنجلوساكسونيين بقدر ما يهم في هذا

471 - Jacques Berque، L'Egypte، op cit، p 237.
472 - Ibid، p. 256.

المقام بيرك المؤرخ الاجتماعي للمغرب والعرب والإسلام .

يلحظ ريفي أن جاك بيرك كان عليه الخيار في مشواره العلمي بين الاتجاه إلى باريس أو نحو العالم العربي . وكما أنه إذا كان قد اختار النهج الأول ، فمن السهولة توقع مكان بيرك بجانب بيير بورديو وريمون بودون وأمثالهما ، فإنه إذ اختار المسلك الثاني ، فإنه لا يجدر مطالبة الرجل بحصر نفسه في إنتاج مونوغرافيات معينة في حين أن قدرته تتعدى دراسة الحالة إلى التركيب ، كما أنها تتجاوز دراسة البلد الواحد (فمثلا ما قدمه بيرك حول بلد مثل المغرب يعد إسهاما محترما) إلى دراسة محيط إقليمي بكامله أو قارة معرفية برمتها .

مهما يكن ، يظل مقال دانييل ريفي تركيبيا و شاملا إلى حد بعيد وعلى دراية بمجمل إنتاج جاك بيرك ، والدليل التحقيب الذي يرسمه . إلا أن الظاهر أن بيرك يفلت بكيفية ما من تحقيب ريفي فليجأ في الأخير إلى مجرد تحقيب كرونولوجي . رغما عن الخطاطة المرسومة ، ظل بيرك وفيا لنهج التاريخ الاجتماعي إلى آخر يوم في مساره الأكاديمي . ومع أن المقالة تمت بطلب من مجلة » هسبريس- تمودا» كتأبين للراحل جاك بيرك ، فإن الخفي ، لنكرر هذا ، هو « إعدم الميت» ، أو بعبارة أقل تلميحا ، « قتل الأب» . صحيح أن المقالة لا تكشف عن هذا ، بل إنها تجمع بين الإعجاب والتقدير

وأحيانا تغلبه ، والنقد البناء في الغالب . إلا أن رائحة ذلك الإعدام تفوح . ما كان بيرك يتوقع أن تأتيه مثل هذه «الطعنة» من مواطنيه . لماذا ينتظر ريفي وفاة جاك بيرك لفعل هذا؟ على أي حال ، فدانييل ريفي مؤرخ كبير ، وللمغرب بخاصة ، كما يشهد على ذلك على الأقل مؤلفه الهائل والدقيق « ليوطي ومؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب» (3 أجزاء) . لكن أن لا يتم التركيز على ما هو خاص وفريد في تجربة جاك بيرك ، فهذا أمر غير مقبول مع أن جاك بيرك عاش التجربة بملئها ، فهو قد جرب كل الخيارات الأكاديمية والمنهجية ، وعاش الحياة كفيلسوف وشاعر ومفكر . وأكثر من ذلك فهو ، كما تأمل قلق العرب المعاصر ، كان قلقا إلى أبعد حد ابتداءا من طلاقه مع تأويل أوغسطين للمسيحية إلى ما بعد تجربة القرآن ، ومن هنا يفسر الحضور القوي لتيمة الموت ليس كموضوع للدراسة بالطبع ، ولكن كحضور في السرعة والتنوع اللذان هيكلا بحوثه ، وفي الانتظام في عملية النشر .

يتحفظ ريفي على الأقل في الخوض في دراسة بيرك التي تشمل ترجمة القرآن وإعادة قراءته مادام أنه ليس متمكنا من العربية الفصحى كما يقول (هذه العربية التي قال بيرك أنه» هضمها» بعد أن كان قد ترجم المعلقات) . الظاهر أن الموجة الجديدة من الباحثين الفرنسيين لم تعد بحاجة إلى تعلم اللغة العربية للخوض

في قضايا مغربية حتى أن بعضهم يشتكي ويتأسف لكون بعض النصوص القانونية أو غيرها لا تصدر إلا باللغة العربية! إذا كانت دراسة بيرك للقرآن الكريم تفرض على ريفي التزام الصمت ، فإنها في المقابل هي التي تثير الإنسان العادي المغربي الذي لا يهمه اسم جاك بيرك إلا بعد أن يعلم أنه قد ترجم القرآن . عندها يتبادر إلى ذهنه هذا السؤال : هل أعلن جاك بيرك هذا إسلامه؟ لمثل هذا الشخص وغيره نقول أن جاك بيرك شخصية معقدة للغاية . فأول أطروحة جامعية له كانت عن القديس أوغسطين الذي في نظره شوه المسيحية بفكرة «الخطيئة الأصلية» ولم يجعل من الحياة الدنيا ، بجانب باسكال من بعده ، سوى تهيئة للحياة الآخرة . هل هذا الإحباط كان كافيا لاعتناق الإسلام؟ لا . بل بيرك أتى الإسلام ليصحح المسيحية . الأكيد في كل الحالات أن بيرك شخص متدين في أرفع معاني الكلمة : وجود الله الواحد ووحدة الأديان السماوية ، أليس هذا معنى الحنفية؟

لنعيد القول بأن هذا الجانب هو أقل ما يثير في إنتاج جاك بيرك . فما الداعي إذن إلى الكتابة حول بيرك؟ على بيرك نفسه ألا يعتقد أننا بهذا نخدم الفرنكفونية . بل ما يبعث على الدهشة هو عندما يخبرنا بيرك أن مستقبل الفرنكفونية (في المغارب وغيرها) يكمن في التعريب . كيف ؟ ترون أن الرجل يكثر الجدال . من ينظر نحو

بيرك بهذا المنظور نكون له أول الناصحين بألا يقرأ أعماله! بالأولى إذا قرأها في مستواها ، سيكون مثل هذا القارئ أول من يتخلى عن مقولة « لقد أكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا» ، لأن كتب بيرك ببساطة تتطلب التمعن والصبر والكثير من الصبر . هنا الرهان : بين المكتوب والرؤية ، بين الجزء والوحدة ، يوجد ناظم رابط : ما أسميناه بشكل تبسيطي ب» النظرة الإيجابية» . واضح في هذه الحالة أن الرجل لذاته وفي ذاته يهم!

نفهم غيرة جاك بيرك على التعريب[473] عندما يحسس بالخطورة التي يشكلها التراجع عن الكُتَّاب ودور القرآن . في حالة المغرب ، مع أن أعلى الهرم ، ممثلا بالملكية ، لازال يتقيد إلى حد ما بهذا النهج الأولي في المدرسة المولوية ، تتهافت البورجوازية على إرسال أبنائها إلى مدارس البعثات . صحيح أن هذا التوجه قد يخلق ازدواجية « مقبولة » ، إلا أن الكفة تميل بشكل مهول لصالح الفرنكفونية . في حين يدعو جاك بيرك إلى اعتماد « ازدواجية لغوية غير متكافئة »[474]. يكون فيها السواد والغلبة للغة العربية ؛ فهذه الصيغة» تحفظ للغة العربية المستويات العميقة والرجوع الفاعل إلى

473 ينبغي التفريق بين التعريب ومجرد الترجمة إلى العربية ، لأن العملية الأولى أعقد بكثير وتتطلب تنقيحا وتأصيلا للمفاهيم . ففي ميدان كالفلسفة ، يرى طه عبد الرحمان" إن الترجمة بالنسبة للفلسفة العربية مسألة حياة أو موت . إلا أن ذلك لا يعني أن الفلسفة تحيا بوجود الترجمة وتموت بفقدها ، بل إن الفلسفة قد تموت مع وجود الترجمة ، وأظن أن هذا هو وضع الفلسفة العربية" . انظر :
- طه عبد الرحمن ، حوارات من أجل المستقبل ، منشورات الزمن ، أبريل 2002 ، ص 69 .

474 . -Bilinguisme dénivelé.

القاعدة وتأسيس ضمانات الهوية والجدل اللامتناهي بين الطبيعة والثقافة ، أي بين ما هو معبر عنه وما هو خام . أما اللغات الأجنبية فينبغي حصرها في إطار تلبية وظائف محددة بدقة»[475]. عندما شرع الباحثون الأنجلوساكسونيون في غزو المغرب بعد الاستقلال لحظوا أن الفرنسية تشكل ما أسموه «اللغة الرسمية الأجنبية» ، إلا أنهم الآن مجبرون على البحث عن عبارة أكثر تناسبا . في الجزائر ينوه بيرك بالتطور الذي يجعل من هذه القضية ذاتها موضوعا للإبداع والتأمل ، لكن عندما يتم هذا الأمر نفسه باللغة الفرنسية ، فإن الإجراء لا يماثل سوى تلك المحاولات التي تدافع عن التعريب في مؤلفات بلغة موليير . وبجانب الدعوة إلى العربية الفصحى ، يدعو بيرك إلى إيلاء الأهمية للهجات : «بالضبط باسم ذات الأصالة التي تفرض الدعوة إلى اللغة الوطنية ، أي إلى ثقافة عربية حقيقية ، ينبغي أيضا احترام الثقافات الفرعية التي تحتملها تلك اللغة»[476].

يتميز إنتاج جاك بيرك كذلك ، فضلا عن شموله للمنطقة العربية ، باستفادته من حجم العلاقات الواسعة التي نسجها بيرك لنفسه مع أهل المنطقة . فبالإضافة إلى احتكاكه مع عموم الشعب مثل عمال المصانع والصناع التقليدين ، صاحب بيرك

475 - Jacques Berque، Langages، p. 70.
476 - Ibid، p . 69.

أيضا المثقفين مثل طه حسين وأدونيس ونجيب محفوظ والطاهر بن عاشور وغيرهم ، والمناضلين السياسيين مثل المهدي بن بركة[477] وأحمد بن صالح وآخرين ، والوزراء مثل ثروت عكاشة وعلال الفاسي وغيرهم ، بل والرؤساء والملوك مثل بن بلة والقذافي وجمال عبد الناصر ومحمد الخامس وملك العراق عبد الكريم قاسم . بل إن بيرك يتباهى بجدية وعمق هذه الصداقة عندما يشير إلى أنه أول من حاضر من الغربيين في خزانة القرويين بفاس أو أنه الغربي الوحيد الذي يزور القاهرة بعد العدوان الثلاثي . لقد استغل بيرك كل هذه العلائق لتكوين نظرة كافية ومتوازنة بين المغرب والمشرق العربيين . ففي 1955 يصدر مؤلف بيرك عن سكساوة بالمغرب فيتبعه مؤلف من نفس النوعية عن قرية سرس الليان بمصر . في 1960 يصدر مؤلف» العرب بين الأمس والغد» (الذي يقتصر في الواقع على الشرق العربي) فيقابله صدور « المغارب في فترة مابين الحربين « (1962) . في 1974 يصدر مؤلف « الأشكال التعبيرية العربية المعاصرة» (الذي يركز بالأساس ، وليس حصرا ، على المشرق العربي) فيوازيه صدور «أعماق المغارب» في

477 - يشير بيرك أن إحدى لقاءاته مع المهدي بن بركة كانت أسابيع قليلة قبل اغتياله ، وذلك في إحدى الأمسيات بالقاهرة التي يتذكر من خلالها توديعه لبن بركة بعد انتهاء السهرة قائلا : "وإذ يودعنا المهدي طلبت منه زيارتي في باريس ، إلا أنه أجاب :" كما تعرف ، إنه لم يعد بإمكاني الذهاب إلى هناك" . قال ذلك بنبرة حزينة حيث أستطيع أن أقرأ ، بعد حادثة الاغتيال ، استباق المصير الذي كان ينتظره" (Ibid، p. 111) .

سنة 1978 . . . هذا التنسيق الرهيب في تتبع الشرق و الغرب العربيين جعل بيرك سلطة علمية حول العرب معترف بها عالميا كما تشهد بذلك كثرة المحاضرات التي كان يلقيها أو المرات التي قدم فيها للمؤلفات التي تعني بالمنطقة أو المناظرات التي دخل فيها حتى مع المثقفين العرب أنفسهم (مثلا مع حسين مروة) . وبالإضافة إلى الاحتكاك مع ثقافة المدن(فاس ، البيضاء ، الجزائر ، عنابة ، طرابلس ، دمشق ، القاهرة ، بيروت ، جدة ، مكة إلخ) ، ظل بيرك عاشقا للبادية منذ شبابه بالمغرب (بني مسكين ، سوق الأربعاء ، حد كورت ، إيمنتانوت ، قرى مصر ، بكفاية بلبنان ، بدو وادي الدواسر بالسعودية إلخ) .

يفرض تميز جاك بيرك نفسه أيضا من خلال أسلوبه وطريقته الفريدين في تحليل و ترتيب أفكاره . ظل بيرك دائما وفيا للفكرة التي ترتكز على معطى مادي أو أساس ميداني . اعتمد في بناء خلاصاته على ما كان يلاحظه بأم عينه وما يتلمسه براحة يديه ، ومن هنا قلة إحالاته في بعض أعماله على مراجع الآخرين . في بعضها الآخر تنتفي الإحالة بشكل كلي . ومع أنه كان يتناول الإسلام كما يعيشه العالم الإسلامي المعاصر ، فإنه كان ينبه دائما أن تقريراته تنبني على الإسلام كما يتصوره ويحياه العرب لأنه كان على ألفة واتصال مع العرب أكثر من غيرهم .

حتى في الحالة التي تنبني فيها الفكرة على مشاهدة حاضرة أو بحث ميداني ، فإن بيرك لا ينفك عن محاورة خلاصاته باستمرار . إنه لا يستقر على رأي . تراه يؤكد الفكرة فيستدرك ثم يؤكد ما استدركه فيتبعه استدراك آخر . ثم اعتراض آخر ثم نفي ثم نفي النفي ، أحيانا دون تقديم التركيب . بل إنك تحس أن الرجل لازال بجعبته المزيد قبل الانتقال إلى فقرة مجاورة . يظل القارئ مشدودا . هذا صحيح . لكن الأمر لا يتعلق بميل نحو الغموض أو الالتفاف حول العبارة . بل فقط يبدو أن العبارة تمضي كأنها تدفع أو تندفع من تلقاء ذاتها . الكلمات تأخذ برقاب بعضها البعض ، وآخر الجملة يولد ما بعدها . أحيانا يشغل ضمير واحد مجمل الفقرة . في أحيان أخرى تختلف الضمائر فيصعب تحديد الإحالة . عندها قد تسرع إلى رمي بيرك بتعمد الغموض . تحاول طرد هذا الاتهام غير المؤسس فتكتشف أن الوضعية الموصوفة هي بدورها مركبة . وهذا هو قصد بيرك ، يعتبر أن الواقع ليس بمستو حتى تكون العبارة مستوية . والحال أن العبارة عليها أن تجهد بأقصى ما تستطيع لتعكس الواقع . ليس فقط هذا . بل عليها أيضا أن تتجاوز بكيفية ما هذا الواقع للتنبؤ بالنزعات الناهضة ضمن أية إشارة أو لوحة مهما كانت منعزلة . ومن هنا إسهام التاريخ الاجتماعي الذي يتباهى بيرك ، وهو يطلب منا مسبقا الاعتذار

عن تفاخره هذا ، أنه أول من أدخله كطريقة ومقاربة لمحاورة شؤون العرب والإسلام . ما أن تفهم هذا السر حتى تشرع في التكيف مع بقية الفقرات . عندئذ يرتفع الغموض ليحل التناسق والتماسك . ليس هذا فقط . بل أيضا الشعر والموسيقى ، ويصير مجمل الإيقاع لطيف وأنيس ، بل وسلس وأنت تستمتع بشلال العبارة تحت وقع الخرير البيركي!

لكن للاستمتاع شروط . أولها تحديد المستويات ومحيط المعنى ومجال الدراسة لأن جاك بيرك صاحب إنتاج كثير ومتنوع . فقد ألف حول المغرب :» عقود الرعي لدى بني مسكين» ،» اليوسي : مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر» وغيرها ؛ وحول المغارب : «أعماق المغارب» ، «المغارب فيما بين الحربين» ، «عرض حول المنهج القانون المغاربي» وغيرها ؛ وحول العرب : «العرب بين الأمس والغد» ، «العرب» ، «بيبليوغرافيا الثقافة العربية المعاصرة» وغيرها ؛ وحول الإسلام : «الإسلام في مواجهة التحدي» ، «ويبقى هناك مستقبل» وغيرها ؛ وحول العالم الثالث : «استلاب العالم» ، «شرق جديد» وغيرها . كما ترجم من العربية إلى الفرنسية : ترجمة القرآن ، ترجمة المعلقات ، ترجمة «تضمين الصناع» للمعدني ، مع التعليق لكل ترجمة من هذه الترجمات وغيرها . أما مقالاته فتعد بالعشرات جمع بعضها في مؤلفات

مثل «من الفرات إلى الأطلس» أو «المغارب : تاريخ ومجتمعات» ، بالإضافة إلى كتب صدرت بالاشتراك مع باحثين آخرين (مثل هنري بوسكي ، جان بول شارناي ، مكسيم رودنسون ، دومينيك شوفاليي ، جوليان كولو إلخ) . بعد أن يوضع كل إنتاج بيركي في مجاله الخاص يسهل على القارئ عندئذ تحديد مستوى المؤلف وإبعاد شبهة الغموض التي ألصقت ظلما بكتب جاك بيرك . إلا أن هذا الشرط غير كاف . على القارئ أيضا اكتساب القدرة على أن يتبين ، تحت رواسب اللااستقرار المشار إليه ، توجه جاك بيرك الفكري ، بل أيضا توجهه الفكراني . لكن هذا أيضا غير كاف . إن القارئ مطالب ليس بأن يعيش مع جاك بيرك فحسب ، بل بكيفية ما أن يعيش بيرك!

الظاهر إذن أن لهجة هذا العرض تميل بشكل واضح إلى الدفاع عن منظور جاك بيرك . الواقع أن إنتاج جاك بيرك يدافع عن نفسه . مع ذلك علينا ألا نصدق بيرك في كل ما يقول . بل إنه في أحيان عديدة يدعونا إلى هذا التوجه بالضبط . لكن هذا لا يعني أن نبحث عن هفواته فنبخس الرجل حقه كما يفعل هذا مثلا ديفيد هارت[478] (أو غيره من الانجلوساكسونيين) عند ما يلحظ أن بيرك

478 - David Montgomery Hart، The Aith Waryaghar of the Moroccan Rif، An Ethnography ﷲ History، The University of Arizona Press، 1976، p 422.

ينقص من قيمة محمد بن عبد الكريم الخطابي إذ يجعله» مثالا سلبيا في المقاومة» كما ورد ذلك في كتاب بيرك «استلاب العالم» في حين أن مجمل الفقرة المخصصة للموضوع في مؤلف بيرك « المغارب في فترة مابين الحربين» تحتفل بثورة المجاهد الريفي وتؤكد أهميتها و ريادتها كأول شرارة للحركة الوطنية . ربما يكون الأمرَّ في القضية الخيبة التي يشعر بها المرء أمام حصيلة الفكر المغربي المعاصر ، خصوصا عندما ينحو أولائك الذين يعتبرون أنفسهم (جاك بيرك لا يعتبرهم!) من أعلامه إلى التعبير بلغة رامبو . أي تراكم يسهمون فيه؟ هل في ميدان كالأدب مثلا يطعمون ، في الواقعية والرومانسية وغيرها ، ماراكمه زولا وهيجو و بروست وشاطوبريان ورامبو وغيرهم؟ هكذا كان يتساءل جاك بيرك[479]. لكنه تجاوز السؤال

479 - ببساطة يدعونا جاك بيرك إلى أمور بسيطة ، أي التشبث بالأصالة : دين ، لغة ، لهجة ، شكل تعبيري خاص . أمور بديهية . ومع ذلك لنقول ، مع العروي ، ما أصعب التقيد بالبديهيات! الواقع أن دولة كالمغرب ، مهما تعمقت خصوصيتها ، لا يمكن أن تظل بمعزل عن الحركية أو الجمود العربي . هل كان على المغرب أن يكون رائدا لحركة التعريب والعروبة؟ بإمكانه ألا يفعل ذلك ، لكنه ظل يتحمل ضريبة ذلك . في عام 1910 لحظ جاك بيرك أن المغرب يأتي على قائمة الدول في استيراد مطبوعات مصر= =كرومر ولايفوته في ذلك إلا تركيا العثمانية التي كانت مصر لازالت خاضعة لها بشكل من الأشكال (J. Berque، L'Egypte، op. cit، p). 215 في فترة لاحقة ظل المغرب مستهلكا أمينا للغث والسمين ، الفج واليانع ، من المنتوجات الثقافية لمصر أو لبنان أو سورية الذين امتطوا جواد العروبة . الواقع أن المغرب له مكانته في الساحة العربية ، على الأقل من الناحية الثقافية ، والتي عليه أن يبرهن عليها بالسبل المؤاتية دون أن يعني ذلك التفريط في خصوصياته المتنوعة . أما إذا تهاون في ذلك ، فعليه أن يتحمل على الدوام الاجتياح القادم من الشرق (دون الحديث عن ذلك القادم من الغرب ، فتلك طامة أخرى) . بعد مصر ولبنان ، ها هو المغرب يستهلك بذات الأمانة منتجات الغزو الإعلامي القطري . الظاهر أن دولة قطر ، الصغيرة جغرافيا ، أضحت جبارة ليس إعلاميا فحسب (قنوات مختلف بالعربية : إخبارية ، رياضية ، وثائقية ، تربوية ، وأخرى بالإنجليزية : إخبارية ورياضية ؛ وأخرى متنوعة : «الجزيرة مباشر» ، الجزيرة نت ، الجزيرة موبايل ، الجزيرة الإذاعية الخ) بل أيضا سياسيا (تجمع قطر أحيانا أطرافا متنازعة لم تجمعها لا الجامعة العربية ولا الاتحاد الإفريقي ولا حتى الأمم المتحدة كما يشهد بذلك مثال لبنان واليمن والسودان في الطريق . إنه فقط بعد الإعداد القطري حيث يحمل التدخل اسم « المبادرة العربية») . وكما على الصعيد

فاختار . ففي مؤلفه «الأشكال التعبيرية العربية المعاصرة» أقصى هذه الطائفة (أي الذين يعبرون بالفرنسية أو الإنجليزية) من قاعدة أبحاثه مع احترامه لمجهودات أصحابها . في نظر جاك بيرك الثقافة العربية هي الثقافة المكتوبة أو المعبر عنها باللغة العربية . في بلد كالمغرب يندهش بيرك للتفوق الذي تحققه الفرنكفونية بالضبط بعد الحصول على الاستقلال في حين - يقارن بيرك- أن ليس هناك أي أحد من الغربيين من يستطيع أن يبرهن على المقابل .

إذا استقامت هذه المرافعة ، دعونا نغني وشمس جاك بيرك ستظل تشرق! توفي جاك بيرك ، لكن يبقى هناك مستقبل لإنتاجه النابض بكل عناصر الحياة المستمرة!

العربي بإمكان المغرب فرض إسهامه الثقافي ، يكون أولى بالمغرب بعث ونشر ورد الاعتبار للثقافة واللغة الأمازيغتين على صعيد المغارب ودول الساحل وغرب إفريقيا ، وذلك على الأقل لتفادي مشاكل ، كائنة أو شديدة الاحتمال .

يدور الحديث في هذه الأيام عن مشروع قانون يحمل إسم « مقترح تعريب الحياة العامة » . مشروع طموح . تعريب ماذا؟ تعريب الحياة . وأية حياة؟ الحياة العامة . أكيد أن حزب الاستقلال الذي يقود الحكومة الحالية أمام رهان صعب . أنصار التعريب يراهنون على مصداقيته ، وأعداء الحزب يلعبون على مفارقاته . حل لغز المفارقة يكمن ، على مستوى الرؤية على الأقل ، حسب عبد الحق التازي ، رئيس الفريق الاستقلالي بمجلس المستشارين ، في أن « الخطر على الأمازيغية والعربية هو الفرنسية ، ويجب أن نتحد في مواجهة هذا الخطر . نحن مع الأمازيغية ومع دسترتها ، وهذا من حقهم . لكن اذهب إلى طوكيو فلن تجد ولو محل واحد معنون بعنوان لغة أجنبية ونفس الأمر بالنسبة لفرنسا» (جريدة النهار المغربية ، عدد 1379 ، الأربعاء 12 نونبر 2008) .

لائحة المصادر والمراجع

I-مؤلفات جاك بيرك

1- الكتب

1- Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb XVII siècle, Editions Sindbad, Paris, 1982.

2- Le Maghreb entre deux guerres, 3ème édition (Revue et augmentée), Editions du Seuil, Paris, 1978.

3- De l'Euphrate à l'Atlas, 1- Espaces et moments, Editions Sindbad, Paris, 1978.

4- De l'Euphrate à l'Atlas, 2- Histoire et nature, Editions Sindbad, 1978.

5- Etudes d'histoire rurale maghrébine, Les Editions Internationales, Tanger et Fès, 1938.

6-Structures sociales du Haut-Atlas (suivi de retour aux Seksawa par
J.Berque et Paul Pascon), PUF, Paris, 1978.

7- Al-Youssi, Problèmes de la culture marocaine au XVII siècle, Centre Tarik Ibn Zyad, 2ème édition, Mai 2001.

8-Maghreb : histoire et sociétés, S.N.E.D, Alger-Duculot, 1974.

9- Partons pour le Maroc (en collaboration avec Julien Couleau), 1ère édition, PUF, 1977.

10- L'intérieur du Maghreb (XVe XIXe siècles), Gallimard, 1978.

11- Langages arabes du présent, Gallimard, 1974.

12- Dépossession du monde, Editions du seuil, Paris, 1964.

2- المقالات

1) Augustin Berque, par un témoin de sa vie, in :Augstin Berque (18841946-), Ecrits sur l'Algérie, Réunis et présentés par Jacques Berque, Archives maghrébines, Editions Sud, 1986.

2- Problèmes initiaux de la sociologie juridique en Afrique du Nord, in Studia Islamica, N° 1, Larose, Paris, 1953, (pp. 137162-).

II- الكتابات عن جاك بيرك

1- بالعربية

1-أحمد بناني ، كاتبان : لوتورنو وبيرك ، مجلة البينة ، السنة 1 ، العدد 4 ، غشت 1962 ، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية ، الرباط 1962 ، (من ص 20إلى ص 33) .

2-عبد المجيد قدوري ، (عرض لكتاب جاك بيرك) .
Ulémas، fondateurs، insurgés du Maghreb XVII siècle ، مجلة الكتاب المغربي ،العدد 1 ،مارس 1983 ،مطبعة النجاح الجديدة ، 1983 ، (ص121-126) .

3-عبد الكبير الخطيبي ، جاك بيرك أو النكهة الشرقية ، ترجمة محمد برادة ، مجلة البحث العلمي ،

العدد 48 ، 2004 ، المعهد الجامعي للبحث العلمي- جامعة محمد الخامس السويسي ، الرباط ، 2004 ، (من ص 27 إلى ص 47) .
2- بالفرنسية
أ- الرسائل
1) -Abderrahim Adnaoui, Contribution à l'étude de la sociologie politique du Maroc, l'apport de Jacques Berque, faculté de droit, Casablanca, Section Sciences Politiques, 1987.
ب- المقالات
1)-Abdel Kabir Khatibi, Jacques Berque et la sociologie néo-orientaliste , in : Bilan de la sociologie du Maroc (du même auteur), Publications de l'Association pour la Recherche en Sciences Humaines (pp.1924-).
2)-Abderrahim Adnaoui , Aux sources de l'Etat marocain , Jacques Berque et échantillonnage de l'expérience politique au Maroc du XVII siècle , ABHATH , n° 1 , Hiver 1987 (pp.714-).
3)-Mohamed Tozy, (lecture de) Essai sur la méthode juridique de Jacques Berque ,in «le Maghreb en 2000 titres» fondation du Roi Abdul- Aziz, Casablanca , imprimerie de Salé , 1992 (pp.810-).
4)- Driss Mansouri (lecture de) l'intérieur du Maghreb XV-XIX siècles , in :» Le Maghreb en 2000 titres» (pp.1014-).
5)-Hammadi Safi , (lecture de) l'intérieur du Maghreb XV-XIX siècles , in :» Le Maghreb en 2000 titres» (pp.1516-).
6)-Rémy Levau, (lecture de) le Maghreb entre deux guerres , in « le Maghreb en 2000 titres «, (pp.1516-).
7)-Abdou Filali- Ansary : (lecture de) Ulémas , fondateurs, insurgés du Maghreb XVII siècle , in « Le Maghreb en 2000 titres » (pp.1618-).
8)- Jean Paul Charnay , Une synthèse du devenir arabe :» les Arabes d'hier à demain» de J.Berque , Tiers–Monde , Tome II , n° 5 Jan – Mars 1961 (pp.113125-).
9)-Mouaqit Mohamed ,Islam, orientalisme et sciences sociales : l'approche berquienne , Revue marocain de droit et d'économie et du développement n° 2 , 1989 , Université Hassan II , Faculté des sciences jur. , éco. et soc., Casablanca (pp.195205-).
10)- Germaine Tillion ,A propos du livre de Jacques Berque, Le Magreb entre deux guerres, Confluent (revue mensuelle) , n° 23-24 ,Sep-Oct 1962 ,Imprimerie Savoyarde , 1962 (pp.592602-).
11)- Jean Dejeux ,(lecture de) le Maghreb entre deux guerres de Jacques Berque, Confluent, n° 2324- , (pp.603616-).
12)- Mohamed Boughali , Lecture de « l'Orient second» de

M.Berque, Plaidoyer pour le monde rural, Lamalif, n°52, Jan-Fév, 1972 , (pp.2226-).

13)-Bouazza Benachir, Esquisse d'une note sur Jacques Berque, de l'Atlas au planétaire ,Revue de la faculté des lettres et sciences humaines, Université Cadi Ayyad , Marrakech, n°1, imprimerie Idouissaaden, 1987, (pp.5475-).

14)-Daniel Rivet, Jacques Berque ,un aventurier de l'intelligence, De l'Atlas à l'Euphrate, Hespéris Tamuda , vol. XXXIII, 1995 , Faculté des lettres , Rabat (pp.715-).

3- بالإنجليزية

1)- Michael Bertt, Jacques Berque and the History of the Maghreb , The Maghreb Review , vol.4, July –Dec 1979, Villiers Publications, London , 1980 , (pp.140148-).

III- مراجع عامة

2- بالعربية

1- ابراهيم بوطالب ، مفهوم البورجوازية في تاريخ المغرب ، مجلة أمل ، العدد 18، السنة 6 ، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ، 1999 ،(من ص 43إلى ص59) .

2- أحمد التوفيق ، صلحاء وسلاطين : دينامية السلطة في المغرب قبل الحماية ، في : وقفات في تاريخ المغرب ، سلسلة بحوث ودراسات ،رقم 27 ، الطبعة الأولى 2001 ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ،(من ص 411 إلى ص 422) .

3- عبد الصادق المزواري الكلاوي : أبي الحاج التهامي الكلاوي : الأوبة ، ترجمة فريد الزاهي ، منشورات مرسم ، الرباط ، 2004 .

4- الطيب بوتبقالت : المسألة الأمازيغية في مغرب الثلاثينات من القرن العشرين بين الطروحات الاستعمارية المغرضة والمواقف الوطنية الثابتة ، المقطع (21) ، خدعة «الضربة المدوخة» ،جريدة الاتحاد الاشتراكي ،العدد 6693 (دجنبر 2001) .

5- الطيب بوتبقالت : نفس الكتاب ، المقطع (22) بعنوان : سياسة «القواد الكبار» ، الاتحاد الاشتراكي ، العدد 6694 ، (8 دجنبر 2001) .

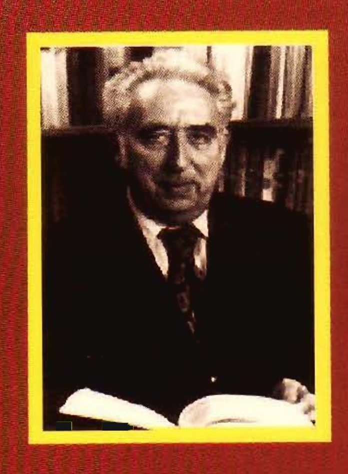
2- بالفرنسية

1- Germain Ayache, Etudes d'histoire marocaine , SMER, Rabat , 1979.

2-Abdelahad Sebti ,Ville et figures du charisme, 1ére édition ,Editions Toubkal ,2003.

3- Abdallah Laroui , Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (18302 , (1912-ème édition ,Centre Culturel Arabe, Casablanca, 2001.

فهرس



إن جاك بيرك يرفض التعميم انطلاقا من حالة واحدة لإرتباطها بزمان ومجال محددين. ولكن بسبب هذا الاختلاف نفسه بين الجهات، والناتج عن المميزات الإيكولوجية لكل جهة، يعثر جاك بيرك على «النسيج المتصل للمغرب»

إن الوحدة الاجتماعية الأساسية (مهما كان الاسم الذي نطلقه عليها : تقبيلت، فرقة ، ناحية، دوار) ...لن تعثر على المعنى الدقيق إلا في الطوبونوميا «أسماء المواقع» (سكساوة، الغرب، الريف، تافيلالت). بين المستويين ...لا توجد إلا الرموز والأسماء. لهذا يطالب جاك بيرك بسوسيولوجية الأسماء، الأسماء التي تم اختيارها لنعت التعارضات والتناقضات الضرورية لأي حياة داخل المجتمع...إن «بيرك» في الوقت الذي يعيد فيه ربط النسق القبلي بقاعدته الايكولوجية يكشف في ذات الوقت عن هشاشته القصوى.

إن ميزة «بيرك» هو أنه لايهمل أي جانب من جوانب الواقع رغم أن هذا الواقع يخالف ويناقض في الظاهر واقعا آخر ...

عبد الله العروي : الأصول الاجتماعية
والثقافية للوطنية المغربية (1830-1912)

... قلت له «لجاك بيرك»: إن أجود ما كتبت هو مايتعلق بالمغرب.

أجاب «بيرك»: لم ينفع ..نفتني إدارة الحماية إلى قرية إيمنتانوت كما نفت الحكومة المغربية المهدي بنبركة خارج البلاد.

عبد الله العروي: خواطر الصباح -1967- 1973
المركز الثقافي العربي -2001 ص75

الثمن: 20 درهما